

www.hiramagazine.com

العدد السادس / السنة الثانية / (يناير - مارس) 2007

- **ونحن نقيم صرح الروح** – فتح الله كولن
- **غياب الهوية** – أ.د. محمد سعيد رمضان البوطي
- **طاقة الإسلام الاحتوائية للآخر** – أ.د. محمد عمارة
- **السماء والحفظ الإلهي** – أ.د. زغلول النجار
- **مفهوم العولمة في رسائل النور** – أ.د. عبد العزيز برغوث
- **وباسمك أفتح الملكوت** – أ.د. حسن الأمراني



بسم الله الرحمن الرحيم

الهدم والبناء...

الإنسان البنَّاء عمودٌ من أعمدة الحضارات، تحرص الأمم على أن تستكثر منه بين ظهرانيها... ومن البداهة بمكان أن نقول إنّ معاول الهدم والتخريب في الأمم والحضارات لا تطال أول ما تطال إلاّ صروح الروح، لأنّ هذه الصروح حصن الإنسان الحصين التي تقيه عواصف الهدم والتخريب، وهي الحِمَى الذي يأوي إليه وجوده الأفضل، فإذا ما تهدمت تيتَّمَت الأمم وضاعتْ وأجدب روحها ومات قلبها، وصارت نهبًا مشاعًا لكل طمَّاع دسَّاس.

ومن هنا جاء مقال أستاذنا فتح الله كولن الموسوم "ونحن نقيم صرح الروح"؛ فقد عالج فيه الكيفية والآلية العملية التي تساعدنا على إقامة صرح الروح المتهدم، وبنائه من جديد على أسس سليمة وقواعد رصينة.

وأما غياب الهوية الإسلامية وخطر هذا الغياب على الأمة كما يرى الدكتور البوطي فيكاد هو الآخر يصبُّ في السياق نفسه من وجهة نظر أخرى. وأمّا الأستاذ النورسي مبدع "رسائل النور" فلا يكاد يخلو عدد من أعداد المجلة عن مقال يدور عنه وعن بعض جوانب فكره كما نشاهد ذلك في مقالَي الدكتور محمد عبد النبي من الجزائر والدكتور عبد العزيز برغوث من ماليزيا. وعن الطاقة الاحتوائية للثقافات الأخرى التي يتميز بها الإسلام يحدثنا فضيلة الدكتور محمد عمارة في شيء من التفصيل والدقة كما هو شأنه في كل ما يكتب. وأمّا باب المجلة العلمي فيتحفنا العالم الجليل الأستاذ زغلول النجار بمقال يحدثنا عن الحفيظية الإلهية للسماء.

وللقصة كذلك كما للشعر مكانها المناسب من المجلة، فقد صاغ لنا الأستاذ نور الدين صواش بقلمه البديع المتأنق قصة واقعية مؤثرة عن واحد من مديري إحدى المدارس في آسيا الوسطى. أما أديب الدباغ فإنه يكتب عن "الاغتراب الحضاري لدى المسلم المعاصر". ومن المغرب الشقيق يهدينا العالم والأديب الأستاذ الدكتور فريد الأنصاري مقالاً يكاد يكون دراسة عن "جمالية التفكير الإيماني". وأما الشاعر والأديب الكبير الأستاذ حسن الأمراني فيهدينا إحدى رائعاته الشعرية "وباسمك أفتح الملكوت"، إلى جانب مقالات قيمة أخرى.

وبعد، فإنّ "حراء" وهي تقدم هذه الإضمامة من المقالات بأقلام جمهرة من الأساتذة الكرام للقارئ العربي لامسةً حسّه الفكري المرهف لا تريد أن تنتحل سيادة فكرية ميسرة على أفكار الآخرين بقدر ما تريد أن تكون إحدى المساهمات إلى جانب أخواتها من المجلات العربية في مواجهة النَّوء القاسي الذي يتعرض له عالمنا الإسلامي.

إن السؤال الذي يفرضه علينا واقعنا المفتقر إلى معرفة إيمانية شاملة هو كيف نستطيع أن نبني هذه المعرفة وأن نغنى بها إلى حد الامتلاء. وهذا الغناء هو ما تسعى إليه حراء بجهدها المتواضع، سائلين الله تعالى التوفيق والسداد والسلام. ■

حراء

مجلة علمية ثقافية فصلية

www.hiramagazine.com

العدد السادس – السنة الثانية (يناير – مارس) 2007

التصور العام

- حراء مجلة علمية ثقافية فصلية تعنى بالعلوم الطبيعية والإنسانية والاجتماعية وتحاور أسرار النفس البشرية وآفاق الكون الشاسعة بالمنظور القرآني الإيماني في تآلف وتناسب بين العلم والإيمان، والعقل والقلب، والفكر والواقع.
- تجمع بين الأصالة والمعاصرة وتعتمد الوسطية في فهم الإسلام وفهم الواقع، مع البعد عن الإفراط والتفريط.
- تؤمن بالانفتاح على الآخر، والحوار البناء والهادئ فيما يصب لصالح الإنسانية.
- تسعى إلى الموازنة بين العلمية في المضمون والجمالية في الشكل وأسلوب العرض، ومن ثم تدعو إلى معالجة المواد بمهنية عالية مع التبسيط ومراعاة الجوانب الأدبية والجمالية في الكتابة.

شروط النشر

- أن يكون النص المرسل جديدا لم يسبق نشره.
- ألا يزيد حجم النص على ٢٠٠٠ كلمة كحد أقصى، وللمجلة أن تلخص أو تختصر النصوص التي تتجاوز الحد المطلوب.
- يرجى من الكاتب الذي لم يسبق له النشر في المجلة إرسال نبذة مختصرة عن سيرته الذاتية.
- تخضع الأعمال المعروضة للنشر لموافقة هيئة التحرير، ولهيئة التحرير أن تطلب من الكاتب إجراء أي تعديل على المادة المقدمة قبل إجازتها للنشر.
- المجلة غير ملزمة بإعادة النصوص إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر، وتلتزم بإبلاغ أصحابها بقبول النشر، ولا تلتزم بإبداء أسباب عدم النشر.
- تحتفظ المجلة بحقها في نشر النصوص وفق خطة التحرير وحسب التوقيت الذي تراه مناسبا.
- النصوص التي تنشر في المجلة تعبِّر عن آراء كُتَّابها، ولا تعبِّر بالضرورة عن رأي المجلة.
- للمجلة حق إعادة نشر النص منفصلاً أو ضمن مجموعة من البحوث، بلغته الأصلية أو مترجمًا إلى أي لغة أخرى، دون حاجة إلى استئذان صاحب النص.
- مجلة حراء لا تمانع في النقل أو الاقتباس عنها شريطة ذكر المصدر.

يرجى إرسال جميع المشاركات إلى هيئة تحرير المجلة على العنوان الآتي:

hira@hiramagazine.com

مجلة علمية ثقافية فصلية تصدر عن:

Işık Özel Eğitim Tic. Ltd. Şti.
İstanbul / Türkiye

صاحب الامتياز

أنس أركنه
mergene@hiramagazine.com

المشرف العام

نوزاد صواش
nsavas@hiramagazine.com

رئيس التحرير المسؤول

حسام الدين السيد
hosam@hiramagazine.com

مدير التحرير

أشرف أونن
eonen@hiramagazine.com

المخرج الفني

مراد عرباجي
marabaci@hiramagazine.com

المركز الرئيس

HİRA MAGAZİNE
Emniyet Mah. Huzur Sok.
No:5 34676 Üsküdar
İstanbul / Turkey
Phone: +902163186011
Fax: +902163184202
hira@hiramagazine.com

الإشتراكات/مركز التوزيع

٧ ش البرامكة – الحي السابع – م.نصر/القاهرة
تليفون وفاكس: +2022619204
المحمول: +20127874552
جمهورية مصر العربية
sub@hiramagazine.com

الطباعة

مطابع الأهرام التجارية / قليوب
جمهورية مصر العربية

رقم الإيداع

١٨٧٩-١٣٠٦

المحتويات



ونحن نقيم صرح الروح



فتح الله كولن



سبق أن أشرنا إلى صفات "ورثة الأرض" إجمالاً.[1] ونريد الآن أن نوضّح فيها بشيء من التفصيل:

الإيمان الكامل

الوصـف الأول لوارث الأرض هو الإيمان الكامل. فالقرآن العظيم يضع "الإيمان" هدفا لخلق الإنسان؛ ذلك الإيمان المشتمل على الأفق العرفاني وروح المحبة وبُعدَي العشـق والشـوق وألوان لانهائية من الأذواق الروحية. والإنسـان مكلَّف ببناء عالمه الإيماني والتفكري بمد الدروب من ذاته إلى أعماق الوجود حينًا، وبالتقاط شرائح من الوجود وتقييمها في ذاته حينًا آخر. ويعني هذا في الوقت عينه ظهور الحقيقة الإنسانية الكامنة في روحه. فالإنسان لا يستطيع أن يستشعر ذاته، والأعماق في ذاته، ومقاصد الوجود وغاياته، ويطلع على كنه الكائنات والحوادث وما وراء ستار الأشياء... إلاّ في ضياء الإيمان. وبعد الاطلاع يحيط فهماً بالوجود في أبعاده الذاتية.

إن الكفر نظام منغلق وخانق. ففي نظر الكافر: بدأ الوجود بفوضى، وتطور في المجاهل المخيفة للصُّدف، وينـزلق متسارعًا إلى نهايـة رهيبة. وفي هذا السـير المتدحرج والمنـزلق، ليس لنا مكان ضيّـق بل ولا موطئ قدم فيه نفحة رحمانية ينشـرح بها الروح، أو نسيم أمان يحتضن آمالنا الإنسانية.

أما إنسان الإيمان المستشعرُ بمنشئه وخط حركته، وتوجهاته: إلى أين وإلى ماذا، ووظائفه، ومسؤولياته... فإنه يرى كل شيء نورًا وضياء، ويطأ قدمه من غير قلق أينما يطأ، ويسير نحو هدفه بلا خوف وفي ثقة. وإذ يسير، يُنَقّب خمسين ألف مرة عن الوجود وما وراء ستار الوجود، ويرشّح الأشياء والحوادث خمسين ألف مرة في الإنبيق، ويصر على طرْق كل باب، ويبحث عن وشائج المناسبة مع كل شيء... وحين يَقصر ما علمه وما وجده، يكتفي بالحقائق التي رآها وعرفها في وجه التحقيقات التي اسـتحصلها هو أو غيره حتى ذلك الحين، ثم يواصل المسير.

في إطار هذه الموازين، يُعد سـائح الإيمان مكتشفًا لمصدر مهم للقوة. هذه الخزينة والذخـيرة التعبوية، العائدة للأبعاد الأخرى، والمرموز لها بـ"لا حول ولا قوة إلا بالله"، لتبلغ من الأهمية موقعًا يلغي حسّ الحاجة إلى مصدر غيره عند من يحوز على هذا المصدر للقـوة، وهذا النور. فإنه لا يرى إلا "هو" سـبحانه، ولا يعرف إلا "هـو"، ولا يفر إلا إليه "هو"، ولا يحيا إلا متوجها إليه "هو"؛ فيسـتطيع تحدّي كل القوى الدنيوية بقدر عمق معرفته واعتماده على الله، ويعيش في شوق، ولا يقع في التشاؤم والسوداوية حتى في أشد المواقف سلبية، مع أمل القدرة على النجاح في كل شيء.

وأكتفي هنا بهذا القـدر عن هذا الموضوع مُحيلاً إلى تراث ضخم من الآثار تعالجه، وفي مقدمتها كليات رسائل النور.

العشق والبعث من جديد

الوصف الثاني للوارث هو العشـق الذي يُعد أهم إكسير للحياة في الانبعـاث من جديد. إنّ من يُعَمِّر ويجهِّز قلبه بالإيمان بالله وبمعرفته، يحس حسب درجته بمحبة عميقة وعشق أصيل لكل البشر، بل لكل الوجود... يحس فيعيش عمره كله وسط حالات المد والجزر للعشق والمواجـد والجذَبات والانجذابـات والأذواق الروحانية التي تحتضن الوجود كله جمعًا. وكما في كل مرحلة زمنية، نحن بحاجة في الحاضر إلى أن تفيض القلوب عشقًا، وأن تتعبأ شوقًا، في فهم جديد وطريّ، لتحقيق انبعاث عظيم؛ فما من حركة أو حملة تثمر وتبقى بمعزل عن العشـق... وخصوصًا إن كانت الحركـة أو الحملة ذات امتدادات إلى العقبى وأبعاد ما وراءها. إن العشـق الإلهي الذي يمكن أن نعرّفه في إطار تعيين موقعنا من الله سـبحانه بصفته الخالقَ المتعالي وصفتنا العبدَ العاجز الضعيف؛ واستشـعارِ نشوة الخلق باعتبار وجودنا ظلاًّ لضياء وجوده "هو"؛ والإيمان بأن نيل مرضاته غاية الخلق ومقصده، والسعي لتصيّدها بلا توان أو وهن، هو مصدر للقوة مكنون بالسر، وسرمد لا ينضب. ولا ينبغي أن يُهمِل ورثة الأرض هذا المصدر، بل ينبغي أن يَحْيَوه جيّاشًا وفوارًا.

لقد تعرف الغرب على العشق في أبعاده المادية على يد الفلاسفة وفي أجواء الفلسـفة الضبابية التي يكتنفهـا الغموض؛ فذاق طعمه وعاش الشـبهات والتذبذبات على طول الطريق. أما نحن فننظر إلى الوجود، ومصدر الوجود، بعدَسـة الكتاب والسـنة، ونحقق حبَّ الخالق الذي نُذكي جذوته ولهيبـه في قلوبنا، وحبَّ المخلوقات من أجل الخالق سبحانه، باللجوء إلى الموازين الدقيقة لهذَين المصدرين مع الانفتاح على أبعادهما الماورائية الفسـيحة. ذلك لأن منشأ الإنسان، وموقعه في الكون، وغاية وجوده، والصراط الذي يسـير فيه، ونهاية هذا الصراط في هذين المصدرين، منسـجم انسجامًا عجيبًا مع فكر الإنسـان وحسه وشـعوره وتوقعاته؛ فلا نملك دونه -إذ نحس بهذا الانسجام- إلا الإعجاب والاندهاش. هاتان المحجّتان البَيضاوان، هما لأرباب القلوب منبع العشق والشوق ومَنْجَم الجذب والانجذاب. فلن يعود خاليًا من يراجعهما بصفوة الحس وحافز الاحتياج، ولن يموت أبـدًا من يلجأ إليهما. والمفيد أن يلجـأ اللاجئون بتعمق وإخلاص الإمام الغزالي والإمام الرباني السـرهندي والشـاه ولي الله الدهلوي وبديع الزمان النورسـي، وأن يقتربوا بحمـاس مولانا جلال الدين الرومي والشيخ غالب ومحمد عاكف، وأن يتوجهوا بإيمان وحركيةِ خالد بن الوليد وعقبة بن نافع وصلاح الدين ومحمد الفاتح وسَليم... نعم، وخطوتنا الثانية هي أن نمزج عشـقهم وشوقهم العجيب -غير المقيَّد بالأزمنة والأمكنة كلها- بأساليب عصرنا ومناهجه ووسائله، في بيدر واحد، لنصل إلى روح القرآن الذي لا يحده زمان ولا يبلى، وبالتالي إلى ميتافيزيقية كونية.

العلم وثلاثية العقل والمنطق والشعور

الوصـف الثالث للوارث هو الإقبال إلى العلم بميزان ثلاثية العقل والمنطق والشعور. وهذا الإقبال يأتي في أوانه إذ يشكّل استجابة لمطلب بشـري عام في وقت انجرفت فيه البشرية وراء فرضيات غامضة مظلمة وإنما لخطوة خطيرة نحو خلاص الإنسـانية عامة. ولقد أشـار بديع الزمان النُّورْسـي إلى أن البشرية ستتوجه في آخر الزمان بكل طاقتها إلى العلم والفن؛ فتسـتمد كل قوتها من العلـم، ويمتلك العلم مرة أخرى الحكم والقوة، وتصير الفصاحة والبلاغة وقوة الإفادة موضوعا في سـبيل قبول الجمهور للعلم، وموضع اهتمام الجميـع... ويعني هذا عودة عصر العلم والبيان من جديد.(٢) ولا نرى سـبيلاً غير هذا، يبعدنا من أجواء دخان الأوهام وضبابها المحيط ببيئتنا، ويوصلنا إلى الحقيقة، بل إلى حقيقة الحقائق. إن اسـتدراكنا للنواقص والفجـوات التي ألمت بنا في القرون الأخيرة، وبلوغنا حدّ الإشباع في المعرفة، وإثبات وجودنا وثقتنا بأنفسنا مرة أخرى بتعمير خراب حس الانسحاق المزمن في شعورنا الباطن... كل ذلك يتطلب منّا إمرار العلم من منشور الفكر الإسلامي، وتمثيله عمَليا والإفادة عنه بشتّى الوسائل.

وقد شـهدنا في تاريخنا القريب خللاً ملموسًا في الفكر العلمي وتزلزلاً في توقير رجال العلم يصعب تعميره، بسـبب تشـتت

التوجهات والأهـــداف حينا، أو اختلاط المعلومة بالعلم، والعلم بالفلسفة حينًا آخر. واســتفاد الأجانب المقيمون في بلادنا من هذا الفراغ فائدة جمة، فافتتحوا المدارس بنشاط في كل زاوية من زوايا الوطن، ولقّحوا أجيالنا باللّقاح الأجنبي من خلال أعشاش التعليم. وتطوعت شــريحة منا لتمكين خير أبناء الوطن استعدادًا وقابلية، من شــغل مقاعد الدارسة فيها، بل حتى بتقبيل الأيدي والأرجل، ليزيدوا في السرعة المطردة للتغريب. ثم بعد مدة، ضاع الديـــن وضاع الإيمان، فالدين خــراب والإيمان تراب عند هذه الأجيال الغِرّة المخدوعة. ضـــاع، فوقعنا كأمة في ابتذال الذات فكرًا وتصورًا وفنًّا وحياة. وهل نعجب من النتيجة، ما دامت هذه المدارس التي سلّمناها الأدمغة الطرية بلا توجّس أو قلق، تضع في اعتبارها من غير اســتثناء وفي كل وقت، تقديم الثقافة الأمريكية والأخلاق الفرنســية والعادات والأعراف الإنكليزية، على العلم والتفكير العلمي. ولذلك، بدأ شــبابنا يتسلى بألعاب الماركسية والدوركهمية واللينينية والماوية، منقسمين إلى معسكرات شتّى، بـــدلاً عن اللحاق بالعصر بعلمهم وفنهـــم وتقنيتهم. فمنهم من واسى نفسه بأحلام الشــيوعية ودكتاتورية البروليتاريا، ومنهم من انغرز في عقدة فرويد، ومنهـــم من ضيّع عقله في الوجودية مشدودًا إلى ســـارتر، ومنهم من أسال ماركوس رضابه، ومنهم من أهدر عمره لاهثًا خلف هذيان كامو...

لقد عشنا هذا كله، وتولى ما يسمى بموائل العلم دَوْر الحاضن لذلك. وفي مرحلة الأزمة هذه، لم تن أصوات القتام وأفواه السواد من تلطيخ اسم الدين وأهل الدين، وتشهير أنواع الجنون الغربي أمام الأنظار. من العسير علينا أن ننسى تلك المرحلةَ ودُماها الرخيصة. إن من هيأوا تلك الأرضية ضد إرادة إنســـاننا ووطننا، سيُذكرون دائمًا في وجدان المجتمع على أنهم مجرمون تاريخيًّا.

والآن، نريد أن ندع مهندسي تلك الأيام السوداء في خلوة مع مساوئهم، وفينا منهم آلام في أنفسنا وأنين في قلوبنا، ونتحدث عن عمال الفكر الذين يكُدّون لبناء مستقبلنا.

أجل، لا بد من تحقيق تجددنا الذاتي ونهضتنا (Renaissance) عن طريق تلقيح عقول شــبابنا بالتفكير العلمي، وذلك سيؤدي إلى تفاعلهـــم واندماجهم مع الفكر والعلم، كما فعَلنا ذلك قبل الغـــرب بقرون مديدة. إن القلق المحســـوس به في الوجدان العام لسيرنا المنحوس، واضطراب القلوب بسبب العيش تحت الوصاية سنين وســـنين، ورد الفعل لدى إنساننا بسبب استغلال الغير لنا قرونا، أورثنا اليوم شهقةً كشـــهقة النبي آدم، ونشيجًا كنشيج النبي يونس، وأنينًا كأنين أيوب عليهم السلام. وقد بلغ بنا الأمر أننا بدافع هذه الأفكار والمشـــاعر وعلى ضوء التجارب التاريخية نشـــعر اليوم وكأن المسافات قد انكمشت ولم يبق للوصول إلى الهدف سوى خطوات.

قراءة الكون والإنسان والحياة

الوصف الرابع للوارث هو إعادة النظر في قراءته للكون والإنسان والحيـــاة، وبالتالي مراجعة تصوراته الصحيحـــة منها والخاطئة. ونذكّر بما يأتي في هذا الشأن:

١- إن الكـــون كتاب فتحه الله تعالى أمـــام العيون ليراجَع باستمرار، والإنسان منشـــور بلَّوري مؤهّل لرصد الأعماق في الوجود وفهرست شـــفاف للعالمين جميعًا.. والحياة تَرَشُّحُ هذا الكتاب وهذا الفهرست، وتَمَثُّلُ المعاني في انعكاس صدى البيان الإلهي. وما دام الكون والإنســـان والحياة باعتبار تلوّناتها أوجُهًا متنوعـــة لحقيقة واحدة فإن تفريقها عـــن بعضها وتقطيعها ظلم وازدراء للوجود والإنسان، لما فيه من إخلال بانسجام الحقيقة.

وكما أن قراءة بيان الله سبحانه النابع من صفة الكلام الجليلة، وفهمه، وإطاعته، والانقياد له واجب؛ فكذلك معرفة الحق تعالى وإدراكه بدلالة الأشـــياء والحوادث جميعًا، التي صورها سبحانه بعلمه وأوجدها بقدرته ومشـــيئته تعـــالى، ثم رؤية طرق التوافق بينهما، أساسٌ لا يمكن التخلي عنه. فإن الفرقان العظيم من صفة كلامـــه هو، وهو روحُ الوجود كله والمصدرُ الأوحد لســـعادة الدنيـــا والعقبى. وإن كتاب الكائنات هو جســـدُ تلك الحقيقة، وحركية مهمة مؤثرة في حياة الدنيا مباشـــرة، وفي حياة العقبى بالوســـيلة، باعتبار تمثيلها لفروع العلم المتنوعة واحتوائها عليها. فالله ﷻ يكافئ مَن يدرك كلا الكتابين ويحوّل ذلك الإدراك إلى واقع عمَلي، ثم ينسج حياته كلها على هذا المنوال؛ بينما يعاقب مَن يهملهما ويتغاضى عنهما بل ولا يفســـرهما تفسيرًا صحيحًا ولا يحولهما إلى واقع.

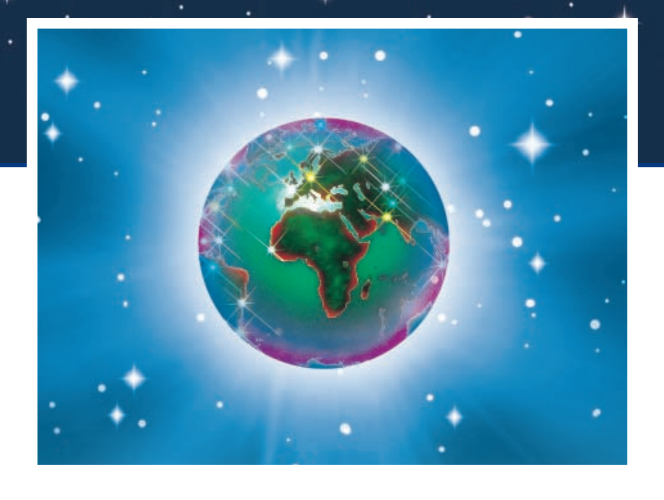
٢- إن قيمة الإنســـان الحقيقية وثيقـــة الصلة بعمق عواطفه ورقيّ فكره وتكامل شـــخصيته. وإن لهذه الأوصاف دورا كبيرا

في تعيين مكانة الإنسان لدى الحق تعالى والخلق أجمعين. فإن الخصال الإنسانية السامية وعمق المشاعر والفكر وسلامة الشخصية بطاقةُ اعتماد مطلوبة دائمًا وفي كل مكان. ومن يكدّر إيمانه وإذعانه بأوصاف وأفكار كفرية، ويُثير القلَق والشبهة في محيطه بشخصيته، لن يكون مظهرًا لتجلي تأييد الحق تعالى وعنايته. وكذلك لا يمكن أن يحافظ على احترام الناس له وثقتهم به. فإن الحق تعالى، والناس، يقيّمون الإنسان بخصاله الإنسانية وشخصيته الرفيعة ويكافئونه على ذلك. وبناء عليه، لا يتصور أن يتحقق نجاح عظيم أو الحفاظ على نجاح قد تحقق، على يد أناس فقراء في قيمهم الإنسانية وضعفاء في شخصياتهم، وإن ظهر عليهم مظاهر المؤمنين الصالحين. كما لا يتصور أن يفشل فشلا ذريعًا أناسٌ يتقدمون خطوات في سلامة شخصياتهم وخصالهم الإنسانية السامية وإن لم يظهر عليهم مظاهر المسلمين الصالحين. فإن تقدير الله تعالى ومكافأته تنظر إلى الخصال والصفات، وكذلك حُسن قبول البشر يقوم عليها بدرجة ما.

٣- ينبغي أن تكون الوسائل إلى الهدف المشروع والحق، شرعيةً وحقًّا. إن السائرين في الخط الإسلامي يتحرّون في كل عمل مشروعية الحق في آمالهم وغاياتهم كلها. والتزام مشروعية الوسائل إلى ذلك الحق أيضًا واجب عليهم؛ فلا يمكن تحصيل رضا الحق تعالى من غير الإخلاص والصدق الذاتي، ولا يمكن خدمة الإسلام وتوجيه المسلمين إلى مراميه الحقيقية بوسائل شيطانية ألبتة. ولعلّنا نرى حينًا إمكانية ذلك، لكن المستهلك لرصيده من الاعتبار والاحترام في سبل الباطل، والفاقد لرعاية الحق تعالى والتفات الناس إليه، لن يدوم نجاحه أمدًا بعيدًا يقينًا.

حرية التفكير

الوصف الخامس للوارث هو أن يكون حرًّا في التفكير وموقِّرًا لحرية التفكير. إن التحرر وتذوق حس الحرية عمقٌ مهم لإرادة الإنسان وباب سحري ينفتح على أسرار الذات. ومن العسير أن نصف بـ"الإنسان" مَن لم ينطلق في ذاك العمق ولم يلج من ذاك الباب. ومنذ سنين وسنين ونحن نلتوي ألَمًا في طوق الأسر الخارجي والداخلي الرهيب. ولقد ضيقوا علينا وسلطوا



أثقالهم أنواعًا وألوانا على مشاعرنا وأفكارنا ونحن في طوق الأسر الذي يخنقنا... فدَع عنك التجدد والتطور في هذا التحديد للقراءة والتفكير والإحساس والحياة، واسألْ إنْ كان في قدرة الإنسان البقاء بملَكَاته ومواهبه الإنسانية في هذا الوسط. فإنّ حماية المستوى الإنساني البسيط في هذه الأرضية عسير، فكيف بإنضاج بشر يسمقون إلى العُلى بروح التجديد ويمدّون البصر إلى اللانهايات؟! فلا تنتظرْ في هذا الوسط إلا أناسًا ضعاف الشخصية وأرواحًا هزيلة ضاوية ومشاعر مشلولة. ونعرف من تاريخنا القريب أنّ الأسرة والشارع ومؤسسات التعليم وأوساط الفنون قد نفخت في أرواحنا الأفكار الشاذّةَ والموازين الفاسدة، فقلبتْ رأسًا على عقب كل شيء، من المادة إلى الروح، ومن الفيزياء إلى ما وراء الفيزياء. في هذه المرحلة المذكورة، كنّا نبدي انحرافا إذ نفكر، ونخطّط لكل شيء على محور الأنانية، ولا نَحسب حسابًا لوجود معتقدات وقناعات أخرى غيرِ معتقداتنا وقناعاتنا، ونلجأ إلى القوة باستمرار كلما سنحت الفرصة. وإذ نلجأ إلى القوة، نخنق أنفاس الحق والإرادة والفكر الحر ونجثم على صدور الآخرين. والمؤلم أن هذه الأمور لم تنته بعدُ، ولا نجزم بانتهائها في المستقبل. لكن الواقع يقتضي -إذ نمضي في طريق التجديد أمةً- أن نعيد النظر في الحركات التاريخية لألف سنة مضت، وأن نستجوب "التغيرات" و"التحولات" المختلفة لمائة وخمسين سنة مضت. هذا ضروري، لأن الأحكام والقرارات تُقَوْلَب في الحاضر حسب مقدسات (!) مصطنعة. والقرارات المنبثقة من تحت ثقل الفهم السائد المعلوم معلولة... وغير ولودة... وعاجزة بديهةً عن الإعداد للمرحلة المشرقة المأمولة. ولئن أَعدّت لشيء، فإنها تُعدّ للتصارع بين الحشود المنحشرة في شباك غرائز الحرص القاتلة، والخصام بين الأحزاب، والعراك بين الشعوب، والصدام

بين القوات. وإنها اليوم هي سبب تضارب شريحة مع أخرى، وتحول التنوع إلى تخاصم، وحتى الوحشية المشهودة في الأرض! فربما كان العالَم يختلف عما عليه الآن اختلافًا بعيدًا، لو أن البشر لم يكونوا أنانيين ومنساقين للرغبات وقساة إلى هذه الدرجة.

علينا إذن أن نكون أفسح في حرية الفكر وحرية الإرادة في مسيرتنا نحو عوالم مختلفة، سواء في سلوكنا مع الآخرين، أو من زاوية أنانيتنا الذاتية وتمسكنا برغباتنا. فالحاجة ماسة اليوم إلى صدور متسعة تحيط بالتفكير الحر وتنفتح على العلم والبحث العلمي وتستشعر التوافق بين القرآن وسنّة الله على الخط الممتد من الكائنات إلى الحياة. ولن يقتدر على ذلك في هذا الزمان إلا جماعةٌ تتحمّل دورا لا يمكن أن يحمله إلا أولو العزم من العباقرة. وفي الواقع كانت هذه الأمور العظام تُمثَّل من قِبل عباقرة في الماضي. لكن كل شيء اليوم توسع في التفريعات توسعًا يعجز الفرد الفريد عن حمل العبء، فحلت الشخصية المعنوية والتشاور والشعور الجمعي محل الدهاء. وهذا هو خلاصة الخطوة السادسة لورثة الأرض.

والحقيقة أنه لم يمكن غرس هذا الفهم في المجتمع الإسلامي في تاريخنا القريب؛ ذلك لأن التعليم التقليدي لم يزد على ترداد مسلماته الثابتة، والمدرسة التقليدية أطلّت على الحياة من حافاتها وأطرافها، والتكيّة (الزاوية) دفنت نفسها في الوجدانيات تمامًا، والثّكنة أظهرت القوة وحدها وزمجرت بالقوة وحدها. فكيف يمكن نشر هذا الفهم في المجتمع، وهل يتوقع أن تكون هذه المبادئ جزءً من الحياة؟!

في تلك المرحلة، هيمنت الفلسفة المدرسية (Scholastic) على التعليم التقليدي و لم يتنفس إلاّ هواءها، وعاشت المدرسة التقليدية مشلولة لغلق أبوابها بوجه العلم والفكر والحرمان من قوة الإبداع والإنشاء، وسَلَّتْ التكية والزاوية نفسَها بقراءة المناقب بدلاً عن العشق والشوق، واستحكمت في ممثلي القوة عقدةُ إثبات الذات والتذكير بالنفس بصورة متكررة لظنّهم أنهم قد أُهمِلوا... وفي خضم ذلك، انقلب كل شيء رأسًا على عقب، وانفعلت شجرة الأمة لتهوي على الأرض... ويبدو أن هذه الزلازل لن تسكن حتى يأتي يومٌ يتهيأ فيه السعداء الذين يمهّد القدر دروبهم لاستخدام هذه الحركيات استخدامًا أمثل، ولتنفيس الاختناقات بين القلب والعقل وفتح ممرات الإلهام والتفكر في أعماق الإنسان النفسية.

التفكير الرياضي

الوصف السابع للوارث هو الفكر الرياضي. لقد حقق الأوائل في آسيا في الزمن الماضي، ثم الغربيون، نهضتهم بفكر القوانين الرياضية. ولقد كشفت الإنسانية في تاريخها كثيرًا من المجاهيل والمغلقات بعالَم الرياضيات المفعمة بالأسرار. فإذا تركنا التصرف المفرط للحروفية جانبًا، فإنه لولا الرياضيات لَما توضحت المناسبات بين البشر ولا بين الأشياء... فهي -كمصدر نور- تُضيء طريقنا في الخط الممتد من الكون إلى الحياة، وتُرينا ما بعد أفق الإنسان، بل أعماقَ عالَم الإمكان الذي يعسر إعمال التفكير فيه، وتوصلنا إلى غاياتنا.

لكن العلم بالأشياء المتعلقة بالرياضيات لا يعني أن العالِم بها رياضي. الرياضي يجمع بين الرياضيات وقوانينها فكريًّا، ويصاحبها دائمًا في الطريق الممتد من الفكر الإنساني إلى أعماق الوجود. يصاحبها دائمًا من الفيزياء إلى ما وراء الفيزياء، ومن المادة إلى الطاقة، ومن الجسد إلى الروح، ومن الشريعة إلى التصوف. إننا مضطرون إلى قبول الأسلوب المزدوج لفهم الوجود فهما شاملاً: وأعني الفكر التصوفي والبحث العلمي. لقد أرهق الغرب نفسه لملء فراغ جوهر لم يعرفه أساسًا، فحاول سد الحاجة نسبيًّا بالالتجاء إلى الروحية (Mysticism). أما نحن، فلسنا بحاجة إلى التفتيش عن شيء أجنبي أو اللجوء إلى أي شيء لعالمنا المتمازج بروح الإسلام على مدى الزمان. إن مصادر طاقتنا موجودة في منظومتنا الفكرية والإيمانية. فالمفيد أن نحيط فهمًا بهذا المصدر والروح كما هو في تَراثه الأوّل... فنشهد عندئذ شيئًا من المناسبات الخفية في الوجود والحركات المنسجمة لهذه المناسبات، ونبلغ إلى تطلع مختلف، وعرفان ذوق مغاير، في النظر إلى كل شيء.

بعد تقديم خلاصة قصيرة عن الفكر الرياضي قد تبدو غامضة وإسرافًا في الكلام، لكنّي أثق بدويّ أصدائه في المستقبل، أريد أن أنوّه إلى الوصف الثامن وهو رؤيتنا الفنّية. لكني بناء على ملاحظات معيّنة، أكتفي هنا بقول جولفر: "بعض الأوساط ليست على استعداد حتى الآن للانخراط في هذه المسيرة بمقاييسنا". ■

(*) الترجمة عن التركية: عوني عمر لطفي أوغلو.

الهوامش

(1) انظر كتاب: ونحن نقيم صرح الروح، فتح الله كولن، دار النيل، ص ١٤.

(2) انظر: الكلمات لبديع الزمان سعيد النُّورْسي، ص ٢٩٢.

من قطرات الماء تتكون البحار. ولكن كم من الوقت تحتاج هذه القطرات لتصنع بحرًا؟! فمن الحماقة أن نتعجّل القطرات كي تقتصر الزمن، لأن سُنن الكون لا تغير عاداتها من أجل سواد عيوننا!

* * *

مقاصد التربية في الفكر الإسلامي

وقدرتها على التكيف مع حاجات المجتمع



أ.د. خالد الصمدي*

إن الناظر في كتاب الله الحكيم وسنة نبيه الكريم لا يكاد يحيد نظره عن البعد المركزي للمقاصد والغايات، فهي جليّة وظاهرة في كل المواقف والأقوال والأفعال. قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۞ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾(الملك:٢) وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾(الذاريات:٥٦). وقال رسول الله ﷺ: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق".(رواه الإمام أحمد)

مقاصد التربية والتكوين في التصور الإسلامي

إن هذا الأسلوب في بناء الفكر المنهجي والمقاصدي لدى الإنسان يلغي من ذهنه العبثية والصدفة، ويربيه على رسم الأغراض الذاتية الواضحة في سياق الغايات المتوافق عليها في المجتمع المسلم، في ضوء أحكام الشريعة الإسلامية ومقاصدها. قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ﴾(المؤمنون: ١١٥).

وفي هذا السياق العام نقرأ دعاء إبراهيم عليه السلام لأمّته حين قال: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(البقرة:١٢٩). فكانت المقاصد الكبرى لإخراج الأمة للناس ملخصة في ثلاث:

المعرفة: ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ﴾، والأولى أعم من الثانية، لأن الآيات تشمل كتاب الله المنظور والمسطور بما يضمان من سائر العلوم.

الحكمة: وهي كل مهارات التواصل والخطاب والتصرف التي تمكن الفرد والجماعة من إقناع الناس بالحق وللحق، وإذا كان الله تعالى يعطي المعرفة لمن يحب نعمة ولمن لا يحب امتحانا ونقمة، فإن الحكمة لا يؤتيها إلا لصفوة ممن يشاء من خلقه ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُو الأَلْبَابِ﴾(البقرة:٢٦٩).

التزكية: وهي تمازُج الإيمان بالوجدان، يدلّ على ذلك تمسك الفرد بمنظومة القيَم الأخلاقية الفردية والجماعية في أرقى مستوياتها، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾(الشمس:٩-١٠).

ونجد الربط بين طلب المعرفة، ومهارة القراءة والكتابة، والتربية الإيمانية، في أوّل آية نزلت من القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾(العلق:١-٥). فالقراءة والربّ والقلم الواردة في الآية واضحة في الدلالة على المراد.

ومن منهج القرآن والسنة المزج بين هذه المقاصد الثلاثة في كل الأحوال التي يتحدث فيها عن الإنسان فصلا ووصلا؛ فالفاصل بينها شقي والواصل سعيد، وهما صورتان بارزتان في القرآن الكريم، أولاهما صورة قارون الذي اغترّ بعلمه حين انفصل عن القيم فقال مزهوا بعد التمكّن المعرفي الذي أكسبه أموالا ما إن مفاتحها لتنوء بالعصبة أولي القوة ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾(القصص:٧٨)، قال تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ﴾(القصص:٨١). وقال الذين اغترّوا بمظهره ومكانته قبل قليل ﴿يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾(القصص:٧٩). ولكنهم قالوا بعد الخسف: ﴿لَوْلاَ أَنْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾(القصص:٨٢). لأن العلم في هذه الحال ما زاد قارونَ إلا علوا واستكبارا، إذ هو في هذه الحال علم مدمِّر، ألا ترى أتباع قارون في عصرنا وقد صنعوا أسلحة الدمار الشامل ومحَوا بها أقواما من البسيطة، ولعبوا بالجينات في غياب الأخلاق؛ فخلطوا الأنساب واستغلوا الصناعات الفضائية للجاسوسية وقهر الشعوب، فكشفوا بذلك عن الوجه البشع للعلم حين ينفصل عن القيم.

وصورة ذي القرنين الذي نجح في بناء سد من زُبَر الحديد وقِطر النحاس، وجعله حائلا بين إفساد يأجوج ومأجوج والقوم الصالحين من الموحّدين ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾(الكهف:٩٧)، وحين عجب الناس من صنيعه وعلمه قال: ﴿هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾(الكهف:٩٨). فربط المعرفة بقيم التوحيد وإجلال العالم الجليل، فكان صنيعه حائلا بين الحق والباطل إلى أن يشاء الله.

وفي ضوء هذين النموذجين المذكورين في القرآن الكريم، على واضعي المناهج التعليمية في البلدان الإسلامية أن يحدّدوا غاياتهم من أنظمة التعليم، فإن اختاروا النموذج الأول، فإن المآل لن يكون إلا الخسف بمفهومه الحضاري الواسع، وإن اختاروا النموذج الثاني كان علمهم رحمة بالبشرية وإنقاذا لها.

مقاصد التربية في الفكر الإسلامي

نكاد نجزم أن علماء التربية المسلمين استوعبوا المقاصد التربوية النظرية النابعة من أصول التربية الإسلامية كما حددناها في الفقرات السابقة، وصاغوا غاياتهم التربوية في ضوئها، إلا أن البارز من تحليل كتاباتهم التربوية هو قدرتهم على تكييف غايات التربية مع متطلبات الزمان والمكان؛ فابن سحنون في القيروان، هو غير ابن عبد البر وابن حزم والقاضي عياض في الأندلس والمغرب، وهؤلاء غير الإمام الغزالي في المشرق، وإن كان الجميع ينهل من حوض واحد. والمستفاد من هذا المنهاج هو إقرار الجميع بضرورة تكييف المناهج التعليمية مع متطلبات العصر ومتغيراته وحاجاته.

وتعكس النماذج التالية هذا التنوع المحكوم بالخلفية الفكرية لكل عالم ومتغيرات عصره السياسية والاجتماعية. فالعلم عند أبي عمر يوسف بن عبد البرّ (الفقيه المحدّث المالكي القرطبي المولود سنة ٣٦٨ هـ والذي عاصر زمن الطوائف الأول بعد سقوط الخلافة وقبل عصر المرابطين) يهدف إلى إرضاء الله وخشيته وحسن العلاقة به في العبادة وتكوين علاقة طيبة بعباده، كما يهدف إلى نفع المسلمين في دنياهم عقليا ووجدانيا وماديا. فالرجل ركز على الإخلاص ونبذ حظوظ النفس لما عايشه من خلافات ذاتية عصفت بمصير الخلافة الإسلامية بالأندلس، ولا سبيل لإعادة العزة

للمسلمين إلا بهذا المسلك الذي ينبغي أن تربّى عليه الأجيال.

وحدد بدر الدين بن جماعة (ت: ٧٣٣هـ) الفقيه الشافعي الشامي الذي عاصر فترة أهوال سقوط بغداد في يد المغول والصراع مع الصليبيّين، المقاصد العامة لطلب العلم في: ١- فهم الدين ومعرفة أصوله وأحكامه وقواعده. ٢-حمل العلم عن السلف. ٣-الدفاع عن الدين وعلومه الصحيحة ضد التحريف والانتحال والتأويل.

ولا شك أن حملات التشكيك التي بثّها الصليبيون والفرق المنحرفة عن الإسلام وتاريخه وحضارته وثقافته اقتضت أن يركز الرجل في المقاصد الكبرى للتعليم على تجديد فهم الدين وفق رؤية سلفية متأصلة والدفاع عن الدين الذي هُددَت حياضه وتداعت عليه الأمم.

وقد جعل ابن سينا (ت: ٤٢٧هـ) مقصد التربية والتعليم تنمية القوة المدركة، ولَفَت النظر إلى أهمية الحكمة فقسمها إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: ما يرتبط بأخلاق المرء وأعماله حتى تكون حياته الأولى والأخرى سعيدة.

القسم الثاني: يرتبط بتدبير المرء لمنزله المشترك بينه وبين زوجه وولده ومملوكه حتى تكون حاله مؤدّية إلى كسب السعادة.

والقسم الثالث: أصناف السياسات والرئاسات والاجتماعات المدنية الفاضلة والرديئة، فيعرف وجه استيفاء كل واحد منها وعلة زواله.

قال الدكتور هشام نشابة، محقق كتاب السياسة لابن سينا "وهذه التوجيهات تصلح أن تكون أساسا لوضع منهاج دراسي لمختلف مراحل التعليم".

والأثر الفلسفي في رؤية الرجل لمقاصد التربية والتعليم نابعة من اطلاعه على مقومات تكوين الإنسان في الفلسفة اليونانية بوجه خاص، والسعي إلى تكييف هذه الرؤية مع التصور الإسلامي، مما يجعل الإنسان قادرًا على تدبير شؤون الحياة الفردية والجماعية مع الحرص على كسب السعادة في الدارَين.

ومن قراءته المعمقة في الفكر التربوي عند ابن خلدون (عالم الاجتماع والعمران المولود سنة ٧٣٢ هـ بـ"تونس"، والذي جاب أقطار المغرب والأندلس زمن بني الأحمر، واحتكّ بنصارى قشتالة، وعاصر ضعف المسلمين وصراعاتهم بالأندلس) يستنتج الدكتور عبد الأمير شمس الدين أن المقاصد التربوية عند الرجل تتمثل في: ١-تربية الملكات، ٢-اكتساب الصناعة، ٣-البناء الفكري السليم.

وهي المقومات الكبرى للعمران، وهي نظرة بعيدة تلخّص علاج مشكلات الانحطاط في العالم الإسلامي في العصور الوسطى، والتي تحتاج إلى فهم السنن الكونية في قيام الحضارات وسقوطها، وهي رؤية يقصد ابن خلدون إلى ترسيخها لدى الأجيال الصاعدة، لأن تغيير مصير ومسار الأمم يبدأ بتغيير التصورات وتنمية المهارات والقدرات.

وبذلك يظهر جليًّا أن هذه الآراء التربوية التي أنتجها الفقيه والمحدث والفيلسوف وعالم الاجتماع في ظروف مختلفة لم تخرج عن المقاصد الكبرى للتربية في الإسلام، لكنها أصبحت أكثر إجرائية حينما حكمتها الخلفية الفكرية لكل عالم، والبيئة المعرفية والسياسية التي حكمت عصره، ورؤيته لسبل التصحيح والتغيير التي ستقوم بها الأجيال بعده، وهي الفكرة المركزية التي يمكن استنتاجها والاستفادة منها لتكييف مقاصدنا التربوية المعاصرة مع متطلبات واقعنا ومتغيراته وحاجاته.

إننا نعتقد أن بناء مناهج التعليم وكذلك العمليات الفرعية المرتبطة بها في أي بلد حَسَم خياراته الدينية والمذهبية باعتماد المرجعية الإسلامية النصية، والاجتهاد المقاصدي، واستلهام التجارب الإنسانية التي لا تتعارض مع ذلك، ينبغي أن تبنى مناهجه التعليمية وفق أسس أربعة:

١- الأساس الفلسفي: وينبني على الخصوصيات العقائدية للأمة ونظرتها إلى الكون والحياة والمصير باعتبارها محدِّدات رئيسة لتكوين رؤية الإنسان لمبررات وجوده وحياته ومصيره.

٢- الأساس الاجتماعي: ويرتكز من جهة على الإمكانات المتاحة في كل مجتمع لتنفيذ نظام متجدد للتربية والتكوين، ومن جهة ثانية حاجاته التنموية على المدى القصير والمتوسط.

٣- الأساس النفسي: ويرتكز على ضرورة مراعاة النموّ النفسي والإدراكي للمتعلمين في مختلف الأعمار، ومسايرة تطوره لتوسيع دائرة التفاعل مع برامج ومناهج التعليم في انسجام وتناغم، مما يُنتج دافعية أكبر نحو التعلم.

٤- الأساس المعرفي: فيراعي طبيعة المفاهيم التي تقدَّم للتلاميذ، وكيفية إسهامهم في بنائها في شكل خرائط معرفية متسلسلة

بأسلوب منهجي لا يقتصر فيه دور المتعلم على التلقّي، بقدر ما يشارك في بناء المعرفة وفق نسق يمكنه من الأدوات المعرفية الضرورية للتنمية، ويؤهّله لإدراك المقاصد الكبرى للعلم الموصلة إلى معرفة الخالق وتقديره حق قدره.

وحين نتحدث عن النظام التربوي والتعليمي بهذه الصيغة المركبة فإننا نرسخ بذلك مبدأين أساسيين:

١- أنه لا فصل بين التربية والتعليم، وإن كان هذا الفصل موجودًا في الواقع اليومي المدرسي الذي أصبح الشأن التعليمي يهيمن فيه على الشأن التربوي والأخلاقي.

٢- أن النظام التربوي التعليمي شبكة من العلاقات والخطابات والوسائل يتداخل فيها سلوك المعلم، وفضاء القسم، والمحتوى التعليمي، والأنشطة التعليمية، وجماعة المتعلمين، والإدارة المدرسية وغيرها.. فلكل طرف سلطته التي يمارسها، والمستهدف واحد طبعًا هو المتعلم الذي نعتقد أنه ينبغي أن يتوفر على مواصفات وكفاءات ثلاث تجعل منه عنصرًا نافعًا لنفسه ومجتمعه:

أ- القدرة على الإسهام في عملية بناء المعارف بمختلف أنواعها، وعدم اقتصاره على تلقيها واستيعابها، وامتلاك آليات تجديد التكوين الذاتي المستمر مدى الحياة.

ب- امتلاك المهارات العقلية (التحليل - النقد - التعليل - التصنيف - الاستدلال - التمييز - الاستشراف - الحوار) والتقنية (امتلاك القدرة على الإنتاج العلمي والتقني المهني واستثمار تكنولوجيا الإعلام والاتصال في التكوين والبحث والتواصل).

جـ- ترسيخ القيم التي تحكم علاقاته مع خالقه ومجتمعه ونفسه؛ وهي قيم مثلى تؤهله للقيام بمهمة الاستخلاف.

فإلى أي حد استجابت مقاصد أنظمتنا التربوية الإسلامية المعاصرة لهذه القواعد والمبادئ ولحاجات واقعنا المعاصر يا تُرى؟! ■

(*) رئيس المركز المغربي للدراسات والأبحاث التربوية الإسلامية بالمدرسة العليا للأساتذة بتطوان / المغرب.

المصادر

(١) الفكر التربوي في الأندلس، عبد البديع الخولي، دار الفكر العربي، ١٩٨٥م.

(٢) دور الفقهاء في الفكر التربوي الإسلامي، محمد طابخ الحسين بنعزوزة - عبد السلام السقالي، المغرب.

(٣) التراث التربوي الإسلامي في خمس مخطوطات، هشام نشابة، دار العلم للملايين، ١٩٨٨م.

(٤) موسوعة التربية الإسلامية: الفكر التربوي عند ابن خلدون وابن الأزرق، عبد الأمير شمس الدين، دار اقرأ، ١٩٨٤م.



إليه فتضرَّع!

ذابَ قلب الحَجر تضرّعًا،

وانفجَر فؤاد الأرض توسلاً...

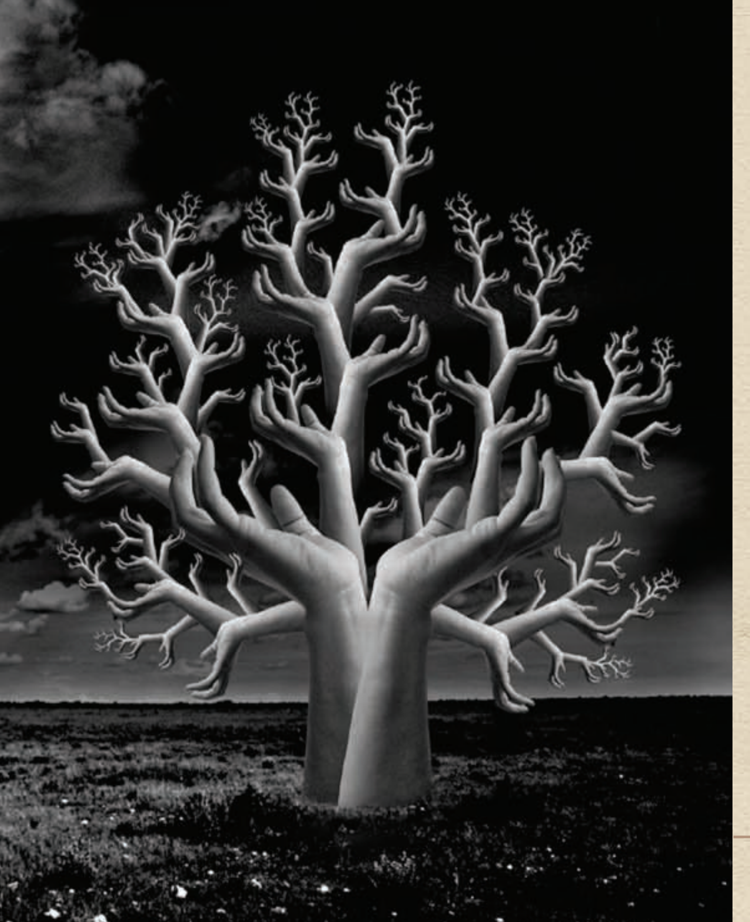
وهذا الشجر.. أغصانه أكُفٌّ ضراعة،

فارفع إليه كفّيك،

ولا تكن دون الحجر والشجر،

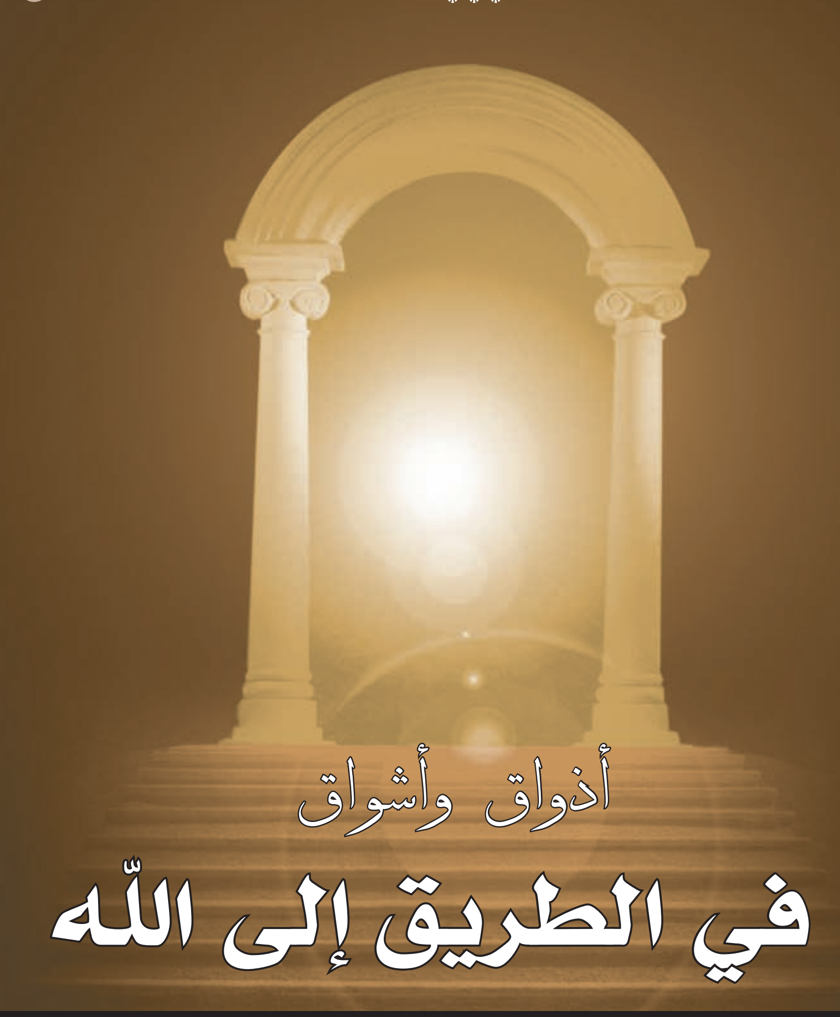
واطلب لشتاء قلبك ربيعًا،

ولتضرعك قربًا وقبولاً..



الجهل والغرور قرينان... والحكمة والفضيلة شقيقتان... فلا يأتي من الجهل إلاّ الغرور... ولا تأتي من الحكمة إلاّ الفضيلة...

***



أذواق وأشواق في الطريق إلى اللّه

أ.د. محمد عبد النبي*

حين نـزعم بأن دعوة بديع الزمان النورسي يهيمن عليها الخطاب التربوي والمنزع السلوكي، فليس هذا انتقاصًا من شمول لم يُدَّع، بل هو شرف يحرص على التفاخر به تلميذ وتابع، وتزلّ قدم من يحصر النهج كله فيه خضوعًا لظرف طارئ، أو اغتنامًا لهامش يُحرص عليه.

سعى بديع الزمان إلى التركيز على خلال العبودية اختيارا "لأنها شرف عظيم، وفيها من اللذة وراحة الوجدان ما لا يوصف". وهذا يعني أن ممارسة وظائفها نعمة في حدّ ذاتها، والذين يترقبون الجزاء على التكليف واهمون، بغفلتهم عن كونها ثوابا و"نتيجة لنعمة سابقة، وليست مقدمة لثواب لاحق". وهذا يتفق مع اعتبارها المقصد الأسمى والغاية القصوى من خلق الكون ولا يمكن للمكلَّف أن يقوم بحقّها إلا إذا وقف على حقيقتها وأداها بإخلاص وتذلّل "مظهرًا عجزه مع عدم التدخل في إجراءات ربوبيته، أو الاعتراض عليها، ومسلما للأمر والتدبير كله إليه وحده مع الاعتماد على حكمته دون اتهام لرحمته ولا القنوط منها".

العجز والعشق.. أو طريق العبودية

وفي لفتة تنمّ عن ذوق ومكابدة يزيد سبيل العجز تأكيدًا للوصول: "إن العجز كالعشق طريق موصل إلى الله". ثم يستدرك على هذه التسوية بأن الوسيلة الأولى " أقرب وأسلم" مبررا ذلك بأنه "يوصل إلى المحبوبية بطريق العبودية" والآخر تتّحد فيه الوسيلة بالغاية، وتنزع منه اللذة في المكابدة ذلة تُبتغى وانكسارًا يُراد، فضلاً عن كونه طريقًا لا تصفو دِلاؤه، وقد يسلكها من لا يرجو للشريعة قدرا. وبإشهار العجز المطلق تتفجّر عطايا العبودية، "فالإنسان بقوة ضعفه وقدرة عجزه أقوى وأقدر بمراتب؛ إذ يُسخَّر له بالدعاء والاستمداد ما لا يقدر على عشر معشاره باقتداره، فهو كالصبي يصل ببكائه إلى ما لا يصل إليه بألوف أضعاف قوته، فيتفوّق بالتسخير لا بالغلبة. فعليه أن يعلن عجزه وضعفه وفقره وفاقته بالاستمداد والتضرّع والعبودية".

ولما كانت حياة بديع الزمان تطبيقا حيا لما يعلنه من حكم وحقائق، فإنه يقول -تأكيدا للإكرام الملازم للعجز-: "عرفتُ بالعجز والفقر غير المحدودين الكامنين في حياتي القدرة المطلقة لخالقي ورحمته الواسعة، من حيث إزالة حاجاتي التي لا تنتهي، ودفع أعدائي الذين لا يُعدّون، فعلمت وظيفة العبودية، وتزودت بالسؤال والدعاء والالتجاء والتذلل".

وحتى لا تذهب بعيدا ظنون من يتلقف الكلام ولا يحققه، أو من يتشوق لسماع ما يميل إليه ويبتغيه، أو من يستسهل الأشكال والرسوم وتُعييه المقاصد والمعاني ينبه النورسي إلى "أن المقصود بالعجز والفقر والتقصير إنما هو إظهار ذلك كله أمام الله سبحانه، وليس إظهاره أمام الناس".

وفي التشبيه السابق للعجز بالعشق إشعار ضمني باللذة التي تصاحبه، صرّح بها في موضع آخر -حين ربطها بالخوف والرجاء حكمة تلازم التذلل نفَسا في مسلك العبودية- فقال: "إن العارف بالله يتلذّذ من عجزه وخوفه من الله سبحانه؛ وحقا إن في الخوف لذّة، فلو تمكّنا من الاستفسار من طفل له من العمر سنة واحدة، مفترضين فيه العقل والكلام: ما أطيبُ حالاتك وألذُّها؟! فربما يكون جوابه هو: عندما ألوذ بصدر أمّي الحنون، بخوفي ورجائي وعجزي... ومن هنا وجد الذين كمُل إيمانهم لذّة تفوق أية لذّة كانت في العجز ومخافة الله، حتى إنهم تبرّؤوا إلى الله براءة خالصة من حولهم وقوتهم، ولاذوا بعجزهم إليه تعالى، واستعاذوا به وحده، مقدمين هذا العجز والخوف وسيلتين وشفيعين لهم عند البارئ الجليل".

الخوف اللذيذ.. أو طريق المحبوبية

إن الشعور بالمعية والرعاية يولّد في النفس ما يسمّيه بديع الزمان بـ"الخوف اللذيذ" الذي يقود إلى المحبة واتخاذ الوضع الجميل حسبما يحبه الله ويرضاه. والخوف أيضا "سوط تشويق يدفع الإنسان إلى حضن رحمته تعالى. ولئن كان للخوف من الله لذّة إلى هذا الحد فكيف بمحبة الله سبحانه؟!" فيكون بإشهار العجز والخوف لذة في العلاقة مع المحبوب، تنشأ عنها المحبة، التي تقود إلى الانصياع والطاعة والإخبات.

إن الذي يستشعر عظمة الله ويخشاه في الغيب والشهادة تهون أمامه المصائب، أو تخفّ وطأتها على قلبه، وبما يُرزَقه أيضا من رجاء يَقوى أمَلُه في الله، ويدفعه للطمع في رحمته، فيلجأ مخبتا للدعاء ليرتفع البلاء أو يُقضى باللطف فيه، و"يتحصّن من كل مصيبة مستندا إلى التوكل، فيمنحه إيمانه هذا الأمان التام والاطمئنان الكامل" ثم يضرب لأثر الإيمان مثلا فيقول: "فلو أصبحت الكرة الأرضية قنبلة مدمّرة وانفجرت، فلربما لا تخيف عابدا لله ذا قلب منوّر، بل قد ينظر إليها أنها خارقة من خوارق القدرة الصمدانية، ويتملاّها بإعجاب ومتعة، بينما الفاسق ذو القلب الميت -و لو كان فيلسوفا ممن يعد ذا عقل راجح- إذا رأى في الفضاء نجما مذنَّبا يعتوره الخوف ويرتعش هلعا ويتساءل بقلق: ألا يمكن لهذا النجم أن يرتطم بأرضنا؟" بل إن انعدام الاطمئنان والأمان أدّى ببعض كبار العلماء والأدباء في نهاية حياتهم إلى الانتحار.

إن الشفاء من ألم الخوف الذي يزيل لذّة الحياة الدنيوية "أن ينصت الإنسان بالتسليم لدعوة القرآن، فينقلب العجز تذكرة دعوة للاستناد إلى القدير المطلق، والاتصال بسر التوكل بنقطة استناد فيها أمْن وأمان من الأعداء". وكان قد ذكر "أنّ التداوي بالقرآن يحيل الفقر المطلق الأليم شوقا لذيذا إلى ضيافة الرحمة، واشتهاء لطيفا لتناول ثمرات رحمة الرحمن، فتزداد لذة الفقر والعجز بمراتب على لذة الغناء والقوة".

التسليم وخفايا الابتلاء

تتأرجح حياة الإنسان بين معاقد الأمل، تراوده في الحقيقة تارة وفي الخيال تارة أخرى، وبين فترات ألم قد تسلمه -إذا طالت- إلى يأس يُقعده أو تبرم يضيره، ولا ينجيه إلاّ التسليم بسنة الابتلاء يقدّر، واعتقاد في حكمة البلاء يتنزّل، يُفتتن بخيره وشره مَن يدين لله بالوحدانية، تنمو به بذرة الخوف في النفس حينا، وتزهر به نبتة الرجاء حينا آخر، ولذلك ينبغي اعتبار الآلام والأوجاع

الروحية "أسواطا ربانية تحثّ على المجاهدة والصبر، إذ تقتضي الحكمة الحيلولة دون الوقوع في اليأس، وكذلك دون البقاء في الاطمئنان والأمان، وذلك بالموازنة بين الخوف والرجاء، مع التجمل بالصبر والتحلي بالشكر".

والموت باعتباره بلاء يحيق بالإنسان من كل جانب، لا يمكن تجاوز القلق الذي يحدثه إلاّ بالاستسلام والتسليم بوجود حكمة في كل ما يفعله الله، ومنها أن يبقى القلب معلقا بين الخوف والرجاء. ولو كان العمر معلوما لكان القلق أشد، فمن رحمة الله -عند المقارنة- أن يؤثر نفسه بمعرفة الآجال، وإلاّ "لقضى هذا الإنسان المسكين نصف عمره في غفلة تامة، ونصفه الآخر مرعوبا مدهوشا، كمن يساق خطوة خطوة نحو حبل المشنقة، بينما تقتضي المحافظة على التوازن المطلوب بين الدنيا والآخرة ومصلحة بقاء الإنسان معلقا قلبه بين الخوف والرجاء: أن تكون في كل دقيقة تمر بالإنسان إمكان حدوث الموت، أو استمرار الحياة، وعلى هذا يرجّح عشرون سنة من عمر مجهول الأجل، على ألف سنة من عمر معلوم الأجل".

ويذكر النورسي سرا آخر من أسرار الإخفاء، فلو كان يوم القيامة معلوما "لدخل قسم من الحقائق الإيمانية ضمن البدهيات، أي يصدق بها الجميع، سواء أرادوا أو لم يريدوا، ولاختلّ عندئذ سر التكليف وحكمة الإيمان المرتبطان بإرادة الإنسان واختياره".

الرزق.. أو طريق الإذلال

لقد ذكر بديع الزمان سبب إبهام الرزق وإخفائه فقال: "لو كان الرزق معيّنا كشروق الشمس وغروبها.. لكانت أبواب الرجاء ومنافذ التضرع ومعارج الدعاء الملفعة كلها بالشكر الجميل والرضى الحسن قد انسدّت عن آخرها، بل لكانت أبواب العبودية الخاشعة الضارعة قد انغلقت نهائيا".

والحديث عن الرزق قد أولاه النورسي عناية خاصة من حيث تعلقه بالعبودية والتوكل تحقيقا أو انتقاضا، والكلام السابق جزء من تلك العناية، أما الجزء الذي قد يفوقه أهمية فهو الاعتقاد الشائع بتلازم سببيّ بين السعي وبين الكسب والتحصيل، تُسند فيه العطايا إلى الساعي، وتَذوي به رسومُ عبادة تعلن، فضلا عن عبودية تقوّض أركانها أنفاس زهو مكتوم بتحصيل كسب أو تحقيق ظفر.

ويعالج هذا الأمر وغيره بالقول: "الإنسان مغرم بالرزق كثيرا، ويتوهم أن السعي إلى الرزق يمنعه عن العبودية، فلأجل دفع هذا التوهم، ولكي لا يتخذ ذريعة لشرك العبادة تقول الآية الكريمة: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾(الذاريات:٥٦) وتحصر الغاية من الخلق في العبودية لله، وأن السعي إلى الرزق -من حيث الأمر والنهي- عبودية لله أيضا... والرزق أنا به زعيم، فواجبكم الأساس هو العبودية، والسعي على وفق أوامري للحصول على الرزق هو بذاته نوع من العبودية".

> **ولا تظنن أن التوكل هو رفض الأسباب وردّها كليا، وإنما هو عبارة عن العلم بأن الأسباب هي حُجب بيد القدرة الإلهية، ينبغي مراعاتها ومداراتها... أما التشبّث أو الأخذ بها فهو نوع من الدعاء الفعليّ.**

وبسبب الغفلة عن عقيدة الرزق، وخلو القلب من معانيها ينشأ الحرص بديلا، تنمو بوادره شيئا فشيئا، فيحيله التكاثر إلى طمع يذل صاحبه، وإذا غلبت هذه الطباع على المجتمع يغدو التنازع على الحطام مسلكا يقود إلى إفساد العلائق وخراب الذمم، يقول بديع الزمان: "الحرص داء كالعداء، بل هو أضر على الحياة الإسلامية وأدهى عليها. نعم، الحرص بذاته سبب الخيبة والخذلان، وداء وبيل ومهانة ومَذلّة، وهو الذي يجلب الحرمان والدناءة". ثم يربط بين ذلك وبين التوكل فيقول: "والحرص يظهر تأثيره السيّء بدءً من أوسع دائرة في عالم الأحياء، وانتهاء إلى أصغر فرد فيه، بينما السعي وراء الرزق المكلل بالتوكل مدار الراحة والاطمئنان، ويبرز أثره النافع في كل مكان".

وكعادة الرجل في ضرب الأمثلة لتأكيد المعنى يلفت الأنظار إلى مفارقة عجيبة بين النبات والحيوان، حيث تساق الأرزاق سوقا إلى من لا يبرح مكانه، ويُعيي الحراكُ من عُرف بالعدو فلا يبلغ بعض غايته إلاّ بالجهد الجهيد يبذله "فالأشجار.. تُهرع إليها أرزاقُها سريعة وهي منتصبة في أماكنها متسمة بالتوكل والقناعة، دون أن يبدو منها أثر للحرص. أما الحيوانات فلا تحصل على أرزاقها إلاّ بعد جهد ومشقة، وبكمية زهيدة ناقصة، ذلك لأنها تلهث وراءها بحرص".

العبودية.. وسبيل ترسيخ الحرية

وقد يُثار ههنا على بديع الزمان سؤال مهمّ مفاده: "ألا يوحي تأكيد معاني العبودية بأنه لم يترك للحرية مجالاً تسيح فيه؟" أو بعبارة أخرى: "ألا يمكن القول بأن ترسيخ معانيها على وفق الرؤية النورية تجعل العبد ذليلاً مستكينًا أمام الله وأمام الناس أيضًا، فيصاب بعطالة على مستوى حياته الدنيا لا ينقذه منها إلاّ شعار في الجهة الأخرى يتفلّت به من كلّ عقال؟"

ويمكن القول جوابًا على هذا السؤال: إن العبودية التي يريدها الرجل هي تلك الحالة التي تجعل المسلم يستسلم لله وحده، ويسلم قياده له لا شريك له، ليخرج من قلبه كل الأرباب، ولتفقد كل الربوبيات بريقها أو سطوتها، فيغدو القلب العامر بذكر الله خاليًا من كل خوف أو رجاء إلا منه سبحانه، "فمن كان عبدًا لله لا يكون عبدًا للعباد"، ومن "أراد العبودية الخالصة لربّ العالمين لا ينبغي له أن يذلّ نفسه فيكون عبدًا للعبيد، وإنّ جني فوائد الحرية الحقة والاستفادة منها استفادة كاملة منوط بالاستمداد من الإيمان"، و"المؤمن حرٌّ في ذاته، فالذي هو عبد لله رب العالمين لا ينبغي له أن يتذلل للناس، بمعنى: كلّما رسخ الإيمان قويت الحرية"، ومفهوم هذه القاعدة عند بديع الزمان أنه كلما قلّ الإيمان كلّما ازدادت فرص الوقوع في الأسر، أو كلّما آنستْ طبائع الاستبداد فراغًا في القلوب ملأته بالدَّينونة للربوبيات التي تنشئها، وفي عبارة رائعة يؤكد فيها الترابط السابق فيقول: "فبِمقدار قوّة الإيمان تتلألأ الحرية وتسطع".

التوكل والتواكل.. أو محاذير الأسباب

تعرّض مفهوم التوكّل من قِبل طوائف وجماعات إلى تفسيرات أسلمته إلى مسلك التواكل الذي عُدّ من قِبل بعض المصلحين والدعاة من أهمّ أسباب الوهن الذي يعصف بالأمة، باعتبار أن المفاهيم المغلوطة تؤثر سلبًا على وعي المجتمع، فيستقرّ في روعه أنه على الجادّة، ولا يسعى إلى تغيير يقلع به عن أسباب التخلّف، وهذه من أخطر حالات المرض حين يعتقد العليل سلامته فلا يبحث عن شفاء.

ومن الكتابات التي تألّق فيها بديع الزمان -بالرغم من ظروف الموقع زمانًا ومكانًا- موضوعُ التوكّل تحقيقًا وممارسة. والمتعلّقون بالظاهر قد يصدرون حُكمًا على الرجل يضعونه به ضمن التصنيف التقليدي المعروف، فيهضمونه حقه وحق الأجيال في المعرفة والوفاء، وكأنه خشي أن يُفهم خطأ بتركيزه على معاني العبادة والعبودية، فراح يُسرع إلى وضع الأمور في نصابها، تارة بتقييد كلامه في إطلاق سبق، وتارة بإلحاق التقييد والاستدراك في الموضع نفسه، وهذا هو الذي سلكه مع مفهوم التوكل، حيث يربطه بمفاهيم عديدة يأخذ بعضها بحجز بعض: "فالإيمان إذن يقتضي التوحيد، والتوحيد يقود إلى التسليم، والتسليم يحقق التوكل، والتوكل يسهّل الطريق إلى سعادة الدارين". ويوضّح سعادة الدنيا بالتوكل فيقول: "نَيل مقام التوكل ودرجة الرضى ومرتبة التسليم، هذه المقامات هي السبيل إلى تذوّق السعادة الحقيقية، والتسلية الخالصة، واللذة التي لا يشوبها حزن، والأنس الذي لا تقربه وحشة"، ويوضّح سبل الوصول إلى هذه السعادة فيقول: إن المتوكل "يسلّم أعباءه الثقيلة أمانة في يد القدرة للقدير المطلق، ويقطع بذلك سبيل الدنيا مطمئن البال في سهولة وراحة حتى يصل إلى البرزخ ويستريح، ومن ثمّ يستطيع أن يرتفع طائرًا إلى الجنة للدخول إلى السعادة الأبدية، أما إذا ترك الإنسان التوكل فلا يستطيع التحليق والطيران إلى الجنة فحسب، بل ستجذبه تلك الأثقال إلى أسفل سافلين".

وبعد التقرير والتأكيد يستدرك قائلاً: "ولا تظنّن أن التوكل هو رفض الأسباب وردّها كليا، وإنما هو عبارة عن العلم بأن الأسباب هي حُجب بيد القدرة الإلهية، ينبغي مراعاتها ومداراتها، أما التشبّث بها أو الأخذ بها فهو نوع من الدعاء الفعليّ؛ فطلب المسبَّبات إذن وترقب النتائج لا يكون إلا من الحقّ ﷻ، وأن المنة والحمد والثناء لا ترجع إلا إليه وحده".

ولا يكتفي بما سبق حتى يزيد التواكل توضيحًا والتوكل بيانًا وجلاء، والعلاقة الدقيقة بينهما كما ينبغي لها أن تستقرّ، فيقول عن التواكل: "هو تكاسل في ترتيب المقدمات، وهو في حكم التمرّد على النظام القائم بين الأسباب التي هي مقتضى مشيئة الله تعالى، والآخر (أي التوكّل): هو توكّل إيماني في ترتب النتائج، وهو من مقتضيات الإسلام، والذي يقود صاحبه إلى التوفيق حتى في النتائج شريطة عدم التدخّل في التقديرات الإلهية". ■

(*) جامعة الجزائر / الجزائر.

المصادر

(1) المثنوي العربي النوري، بديع الزمان سعيد النورسي.
(2) الكلمات، بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي.
(3) الشعاعات، بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي.
(4) الملاحق، بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي.
(5) اللمعات ، بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي.
(6) المكتوبات، بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي.
(7) صيقل الإسلام، بديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي.
(8) سيرة ذاتية لسعيد النورسي، إعداد: إحسان قاسم الصالحي.



ليست المشكلة غياب الحداثة

إنما المشكلة غياب الهوية

أ.د. محمد سعيد رمضان البوطي*

من شـــأن الإنسان في كل زمان ومكان أن يملّ من القديم، وأن تهفو نفسه إلى الجديد. ولكن من واجبه أيضًـــا أن يلازم إنســـانيته، وأن يتقيد بمعانيها وأن يتعامل مع مســـتلزماتها، وأن لا يملّ مـــن الارتباط بذلك مهما تقادمت صحبة الإنسان لمعاني إنســـانيته، بل إنه لا يستطيع أن يعيش إلا بهذا الالتزام، وإلا من خلال أداء هذا الواجب.

بين القديم والجديد

إذن، فالارتباط بالهوية الإنسانية، هو المنطلق والأساس. أما التوجه إلى التفسير والتطوير واستحداث الأنماط الجديدة للحياة، فيجب أن يتم داخل هذه الهوية، وأن يكون من أجل خدمتها وحمايتها.

غير أن مشـــكلة إنسان الحضارة الحديثة، أنه يتطلع دائمًا إلى أي جديد تركن إليه النفس، ولو تجاوز في سبيل ذلك ذاته وتنكر لهويته، فيقع من جراء ذلك في تشـــاكس مع إنسانيته، وفي ثنائية مهلكة ما بين مستلزمات هويته الثابتة وأهوائه المتجددة.

ولكي نعالج هذه المشـــكلة، لا بـــدّ أن نجعل أولى خطوات المنهج المرســـوم لتجديد حياتنا وتطويرها، التعرف على هويتنا، ومن ثم تجديد الارتباط بها والتمسك بمقتضياتها.

الحداثة والأصالة

ونظرًا إلى أن ميزان حديثي عن علاقة الإنســـان بقطبَي الحداثة والأصالة، إنما هو الإسلام، فالهوية التي ستكون محل اعتبار لي في معالجة هذا الأمر، إنما هي عبودية الإنسان لله.

غير أن ثمة جامعًا مشتركًا بين المسلمين وغيرهم، للتعاون في حلّ هذه المشكلة، ألا وهو الهوية الإنسانية. ذلك لأن الله لم يعرّف عباده على هذا الدين منذ فجر الوجود الإنساني و لم يلزمهم به، في أصوله الاعتقادية وأحكامه السلوكية، إلا ليكون وقاية للمعاني وللقيم الإنسانية التي تميز بها الإنسان عن سائر المخلوقات.

ولو علم الله أن في الفلسفات والأنظمة الاجتماعية ما يغني عن التعليمات الإسلامية التي شرفنا الله بها، لحماية الإنسانية من العبث بها والظلم لها، إذن لأمَرنا بالتوجه إلى تلك الأنظمة والفلسفات.

إذن، فحديثي الآن عن الإسلام وما قد يكون فيه من ثوابت ومتغيرات، ليس إلا حديثًا عن السور الذي يحفظ المعاني الإنسانية من العبث بها ومحاولة القضاء عليها..

إنني لم أجد داخل بنيان الحقائق الإسلامية، التي تتألف من المعتقدات العلمية والأحكام السلوكية إلا الثوابت التي لا تتغير. ذلك لأن كل ما فيه حقائق، والحقائق لا تقبل –من حيث المنطق– أي تطور أو تغيير.

غير أن وظيفة هذه الحقائق الثابتة، أنها تبعث الإنسان المسلم على أن يمارس حياته الفكرية والحضارية والاقتصادية عمومًا بطريقة متجددة، طبق نظام ثابت معين تحكمه تلك الحقائق التي لا تقبل التغيير.

ومن المهم أن نعلم أن هذه المتغيرات الفكرية والحضارية ليست داخلة في شيء من تلك الحقائق، وإنما هي من آثارها وثمارها. ومن حِكَم الله الباهرة أن الإسلام لا يمكن أن يبعث المسلمين على التجدد المستمر في حياتهم، إلا إن كان هو بحدّ ذاته –أي متمثّلاً في حقائقه– ثابتًا مستقرًّا يتسامى على التطوير والتغيير.

وإن هذا الموجز الذي أضعه أمام القارئ لا يتسع –في إيضاح هذه الحقيقة– إلا لطائفة يسيرة من الأمثلة التطبيقية، أرجو أن تكون وافية ببيان هذه الحقيقة الهامة.

إليكم أولاً هذا المثال: إن من أجلّ مبادئ الإسلام، دوران أحكامه على رعاية مصالح الناس على أن يراعي في ترتيبها سلّم الأولويات على الشكل التالي: رعاية مصلحة الدين أولاً، فالحياة ثانيًا، فالعقل ثالثًا، فالنسل أو الأسرة رابعًا، فالمال خامسًا.

إن مما لا ريب فيه أن هذا المبدأ ترجمة لحقيقة ثابتة تستعصي على أي تطوير أو تغيير له. غير أنه يبعث على سلسلة من التطورات لا نهاية لها في نطاق التعامل مع الحياة. إنه يتطلب منا رعاية مصلحة العقل كلما كان ذلك متّسقًا مع مصلحة الحياة، ولكن المبدأ ذاته يفرض علينا تجاوز مصلحة العقل إذا كان في ذلك تهديد لمصلحة الحياة.

وكذلك مصلحة المال؛ إن هذا المبدأ يتطلب منا رعاية المال كسبًا وتنمية وحفظًا، بكل الوسائل والوجوه الممكنة، ما دام التنسيق قائمًا بين متطلبات هذه الرعاية، ورعاية المصالح الأربع التي تسبقها في الأولوية والاهتمام. فإذا قام التعارض بين متطلبات رعاية المال، وأيٍّ من تلك المصالح الأخرى وجب علينا تجاوز مصلحة المال بالقدر الذي يحقق التنسيق بينها وبين ما عارضها من المصالح الأخرى.

إن هذا المبدأ الثابت، يبعث على حركة مستمرة في تجديد العلاقات التنسيقية بين هذه المصالح، كلما قام فيما بينها أي خلل أو اضطراب. ومن الواضح جدًّا أن هذا التحرك المطرد، إنما هو ظل لذلك المبدأ الثابت، وليس هو المبدأ ذاته كما قد يتوهم بعض السطحيين.

وإليكم مثالا آخر: من المبادئ والأحكام الثابتة حرمة الغش والخداع في المعاملات المالية، وحرمة التعاملات التي تؤدي إلى استيلاد النقود من النقود دون ربط لها بالمنافع (أي الربا). إن الانضباط بهذا المبدأ الثابت، من شأنه أن يفتح السبيل إلى بدائل متنوعة كثيرة في أوجه التعامل المالي، مثل عقد المرابحة، والمضاربة، وأنواع كثيرة من الشركات وكل ما قد يستجدّ من أوجه المعاملات المالية البعيدة عن المراباة والغش والخداع.

إنه مبدأ ثابت بحدّ ذاته، ولكنه يدفع إلى استحداث ألوان وأطوار جديدة من المعاملات الاقتصادية والمالية.

وإليكم مثالا آخر: من المبادئ الثابتة اشتراط العدالة في الأشخاص الذين يتولون المناصب الحساسة كالقضاء ونحوه، وفي الأشخاص الذين يدلون بشهاداتهم في المحاكم. والعدالة في الشخص أن لا يرتكب جهرًا ما قد يخلّ بالمروءة، ويثابرَ على ذلك.

ولكن ما هو الشيء الذي يخلّ بالمروءة؟ إنه المثابرة على ارتكاب أحد المحرَّمات، أو مخالفة المألوف والأعراف الدارجة بين الناس.

إنه مبدأ وحكم ثابت في الشرع لا يتبدل، ولكنه كما ترون مربوط بتقلبات الأعراف الاجتماعية. فقد كان من مقتضى هذا المبدأ أن تسقط مروءة من يرتدي مثلاً البنطال الضيق ويمشي حاسرًا بين الناس في الشوارع العامة قبل عدة قرون لمخالفته الأعراف الدارجة آنذاك. ولكن هذه الثياب نفسها منسجمة اليوم مع المروءة كل الانسجام، فلا تمنع من شهادة ولا مِن تولِّي

منصب حساس. ويقول الإمام الشاطبي -وهو كما تعلمون من أبرز علماء غرناطة- إن خروج الشخصية الإسلامية إلى الشوارع والمحافل العامة في المشرق حاسر الرأس، يسقط المروءة ويردّ شهادته، ويمنع من تبوء مناصب القضاء ونحوها. ولكن ظهور هذه الشخصية الإسلامية عندنا في المغرب بهذا المظهر لا يسيء إلى المروءة ولا يؤثر في صحة شهادة ولا يمنع من تبوء منصب.

وهكذا فقد جعل الإسلام من العرف الاجتماعي الدارج ميزانًا للياقة التي يجب أن يتحلّى بها المسلم بل كل إنسان، والتي تكسبه المروءة حسب الاصطلاح الفقهي. على أن لا يتعارض العرف مع ثابت آخر من ثوابت المبادئ الإسلامية.

حاجات الإنسان والإسلام

إذن، فالمبادئ والأحكام الإسلامية كلها ثابتة لا تنسخها تيارات الحداثة. وسبب ثباتها أنها تتجاوب مع الحاجات الإنسانية الثابتة. ولو تطورت إنسانية الإنسان لتطورت هذه الأحكام والمبادئ معها. ولكن سبل تنفيذ هذه الأحكام والمبادئ تخضع -كما رأينا- للجدة وللتطور دائمًا. وللأعراف الاجتماعية السليمة سلطان مستمر على ذلك.

وحصيلة القول أن الأحكام التي يتضمنها الإسلام كلها ثوابت لا تتبدل. ولكن صدق التمسك بأحكامه، يبعث على التطور الدائم على أن يتم ذلك برقابة دائمة من تلك الأحكام.

والبرهان الجليّ على ذلك أن المسلمين الذين اعتنقوا الإسلام في عصر خاتم الأنبياء محمد ﷺ، والذين كانوا مجموعات من قبائل البادية العربية، تطوروا خلال نصف قرن في معايشهم وأساليب حياتهم كلها، أكثر مما تطوره المسلمون المتنورون في هذه القرون الأربعة الأخيرة دون أن يدفعهم ذلك التطور السريع إلى تطوير حكم واحد من أحكام الإسلام، بل كان سرّ تطورهم شدّة ثباتهم واستمرار تمسكهم بتلك الأحكام.

إذن، فالمسلمون بمقدار ما يخلصون لمبادئ إسلامهم ويثابرون على التمسك بها، تفتح لهم تلك المبادئ آفاق التطور والحداثة وتدفعهم سريعًا إليها ضمن خطة ونظام.

أرأيتم إلى العربة التي نركبها، إن الإسلام كهذه العربة. بمقدار ما تحافظ على دخائلها ونظامها تنقلك وتوصلك إلى غاياتك، فإن تبرّمتَ بها ومللتَ من مظهرها ونظامها وأخذتَ تعبث بها، توقفت وأوقفتك وخلفتك عن بلوغ آمالك. ■

(*) كلية الشريعة، جامعة دمشق / سوريا.





آفاق الإسلام الاحتوائية للآخر

أ.د. محمد عمارة*

إن السماحة التي تعني المساهلة واللين في المعاملات، والعطاء بلا حدود، ودونما انتظار مقابل، أو حاجة إلى جزاء.. إن هذه السماحة في النسق الإسلامي ليست مجرد كلمة تقال، ولا شعار يرفع، ولا حتى صياغةَ نظرية تأملية ومجردة؛ كما أنها ليست مجرد فضيلة إنسانية يمنحها حاكم ويمنعها آخر. وإنما هي دين مقدَّس، ووحي إلهي، وبيان نبوي لهذا الوحي الإلهي، وتجسيد وتطبيق لهذا الدين في دولة النبوة وفي دولة الخلافة الراشدة، وفي التاريخ الحضاريّ للشرق الإسلامي منذ ما قبل أربعة عشر قرنًا، وحتى هذه اللحظات، بل لأن هذه السماحة هي ثمرة للدين الخالد والشريعة الخاتمة، فإنها ستظل منهاجًا للإسلام والمسلمين إلى أن يرث الله الأرضَ ومن عليها.

التأسيس القرآني للسماحة الإسلامية

لقد بدأ القرآن الكريم فأسس السماحة الإسلامية على قاعدة الرؤية الفلسفية الإسلامية للكون والوجود. ففي هذا الوجود هناك "حقّ" هو الله ﷻ، و"خلْق" يشمل جميع عوالم المخلوقات. هناك واجب الوجود، وهناك الوجود المخلوق لواجب الوجود. وفي هذا التصور الفلسفي الإسلامي تكون "الواحدية والأحدية" فقط للحق، لله ﷻ واجب الوجود؛ بينما تقوم كل عوالم الخلق المادية والنباتية والحيوانية والإنسانية والفكرية، (أي كل ما عدا الذات الإلهية) على التعدد، والتنوع والتمايز والاختلاف باعتبار هذا التنوع والتعدد والتمايز والاختلاف قانونًا إلهيًا تكوينيًّا، وسنة من سنن الله التي لا تبديل لها ولا تحويل. الأمر الذي يستلزم –لبقاء هذه السنة الكونية قائمة ومطردة– تعايشَ كل الفرقاء المختلفين، وتعارف جميع عوالم الخلق، أي سيادة خُلق السماحة في العلاقات بين الأمم والشعوب والثقافات والحضارات والمذاهب والفلسفات والشرائع والملل والديانات والأجناس والألوان واللغات والقوميات. فبدون السماحة يحل "الصراع" الذي ينهي ويلغي ويفني التعددية محلَّ التعايش والتعارف، الأمرُ الذي يصادم سنة الله ﷻ في الاختلاف والتنوع بكل عوالم المخلوقات.

على هذه الرؤية الفلسفية الإسلامية للكون والوجود أقام الإسلام مذهبه في السماحة، باعتبارها فريضة دينية، وضرورة حياتية، لتكون جميع عوالم الخلق على هذا النحو الذي أراده الله.

وفي التأسيس القرآني لهذه الرؤية الفلسفية الإسلامية للكون والوجود نقرأ في آيات الذكر الحكيم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ

الله أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(الحجرات:١٣). فالإنسانية تتنوع إلى شعوب وقبائل، والسماحة هي السبيل إلى تعايشها وتعارفها في الإطار الإنساني العام.

وهذه الأمم والشعوب والقبائل تتنوع أجناسها وألوانها وألسنتها ولغاتها ومن ثم قومياتها كآية من آيات الله. والسماحة هي السبيل لتعايش الأجناس والقوميات في إطار الحضارات الجامعة لشعوب هذه القوميات.

وهذه الأمم والشعوب تتنوع دياناتها وتختلف مللها وشرائعها، وتتعدد مناهجها وثقافاتها وحضاراتها، باعتبار ذلك سنةً من سنن الابتلاء والاختبار الإلهي لهذه الأمم والشعوب، وحتى يكون هناك تدافع وتسابق بينها جميعًا على طريق الحق وفي ميادين الخيرات ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾(المائدة:٤٨). وبدون السماحة يستحيل تعايش هذه التعددية، التي هي علة الوجود، وسر التسابق في عمران هذا الوجود.

وانطلاقًا من هذا الموقف القرآني الذي جعل هذا التنوع سنة إلهية وقانونًا كونيًا، كان "العدل" الذي هو معيارُ النظرة القرآنية وروح الحضارة الإسلامية هو أساس السماحة الإسلامية في التعامل مع كل الفرقاء المختلفين. ففي التأسيس لهذه السماحة العادلة يطلب القرآن الكريم منا العدل مع النفس والذات: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ للهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ﴾(النساء:١٣٥)، بل ويوجب الله ﷻ علينا العدل حتى مع مَن نكره ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ للهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾(المائدة:٨).

كذلك يوجب الإسلام علينا العدل في النظر إلى المخالفين لنا في الاعتقاد الذي هو سنة إلهية، ونحن مدعوون وفق منهاج القرآن ألا نضع كل المخالفين لنا في سلّة واحدة، وألا نسلك طريق التعميم الذي يظلم عندما يغفل الفروق بين مذاهب هؤلاء المخالفين ومراقفهم. وإقامةً لهذا المنهاج رأينا القرآن الكريم لا يعمم أبدًا في حديثه عن أهل الكتاب وأصحاب العقائد والديانات، وإنما يميّز بين مذاهبهم وطوائفهم، فيقول: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾(آل عمران:١١٣).

فالقاعدة القرآنية الحاكمة في التمييز العادل بين الفرقاء المخالفين لنا هي أنهم ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾. صنع القرآن ذلك عندما ميز فرقاء اليهود فلَم يعمم في الحكم على مجموعهم، وصنع ذلك أيضًا في الحديث عن النصارى عندما ميّز بين مَن هم أقرب مودة للمسلمين: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ ۞ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾(المائدة:٨٢-٨٣).

والمنطلق الإسلامي لهذا التمييز المؤسس للعدل والسماحة هو العدل الإلهي الذي هو فريضة إسلامية جامعة. فالله ﷻ رب العالمين جميعًا ﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(الفاتحة:٢) وليس رب شعب بعينه دون سائر الشعوب. والتكريم الإلهي شامل لكل بني آدم ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾(الإسراء:٧٠). ومعيار التفاضل بين البشر المكرمين هو التقوى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾(الحجرات:١٣)، وليس معيار التفاضل لونًا أو جنسًا أو سلالة أو أية صفة من الصفات اللصيقة التي تستعصي على الاختيار والكسب والتغيير. ولذلك قال الله ﷻ ﴿إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾(الكهف:٣٠).

وتأسيسًا على هذا العدل الإلهي، أسس القرآن الكريم سماحة الإسلام في النظر إلى مواريث النبوات والرسالات التي سبقت رسالة محمد بن عبد الله ﷺ؛ فالقرآن الكريم لم يأت نافيًا لما سبقه من كتب، وإنما جاء مصدِّقا لها، ومهَيمنًا عليها، أي مشتملاً على ثوابتها ومستوعبًا لأركان العقائد فيها، ومضيفًا إليها، ومصححًا لما طرأ عليها. فعلى حين كانت اليهودية تنكر النصرانية وكانت النصرانية تنكر اليهودية جاء القرآن الكريم مصدقًا لما بين يديه من الكتب السماوية السابقة ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾(البقرة:٩١)، ومؤكِّدًا على أن ما أصاب بعض مواضع هذه الكتب لم يمح ما أودعه الله فيها من هُدى ونور ﴿اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۞ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ ۞ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾(آل عمران:٢-٤)، فالتوراة ﴿فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾(المائدة:٤٤)، وكذلك الإنجيل ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾(المائدة:٤٦).

ذلك هو التأسيس القرآني للسماحة الإسلامية على الرؤية

الفلسفية للكون والوجود، المحكومة بسنة التعدد والتنوع والتمايز والاختلاف كقانون تكويني (أزلي أبدي)؛ الأمر الذي يجعل السماحة ضرورة لازمة وفريضة واجبة لبقاء قانون التنوع والاختلاف عاملاً ومرعيًا في عوالم المخلوقات والفلسفات والشرائع والديانات والثقافات والقوميات والحضارات.

التطبيق النبوي للسماحة الإسلامية

ولأن الإسلام هو الجامع والوارث لكل مواريث النبوات، فلقد تفرد بالسماحة التي جعلته وحده المؤمن بكل الرسل والأنبياء، وبجميع الكتب والصحف والألواح، دون تفريق بين أحد من رسل الله عليهم الصلاة والسلام ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾(البقرة:٢٨٥).

ولأن السنة النبوية هي التطبيق النبوي للبلاغ القرآني، رأينا احتفاء رسول الله ﷺ بكل الرسل والأنبياء. فالوحي الذي جاء به في عقائد دين الله الواحد هو ذاته الوحي الذي أوحاه الله إلى الخالين من أصحاب الرسالات.

وانطلاقًا من هذا البلاغ القرآني جاء التطبيق النبوي الذي يحتضن بالإيمان كل الرسل والأنبياء، فهم جميعًا أبناء دين واحد، وشرائعهم (أمهاتهم) شتى: "الأنبياء إخوة من علاّت، وأمهاتهم شتى، ودينهم واحد"(متفق عليه). ولذلك خاطب الرسول ﷺ اليهود فقال: "نحن أحقّ وأولى بموسى منكم"(متفق عليه). وقال عن عيسى عليه السلام: "أنا أولى بعيسى بن مريم في الأولى والآخرة"(متفق عليه).

ولم يقف هذا التطبيق النبوي للسماحة القرآنية عند حدود السنة القولية، بل تحولت هذه السماحة في التطبيق النبوي إلى واقع معيش، وأخلاق وسجايا، قنّنها وقعدها دستور دولة النبوة في المدينة المنورة وفي العهود والمواثيق التي قطعها وكتبها رسول الله ﷺ لغير المسلمين.

ففي دستور دولة المدينة (الصحيفة، الكتاب) أصبح الآخَر الديني (اليهود) جزءًا من الذات (ذات الرعية الواحدة والأمة الواحدة) مع حرية الاعتقاد بالعقيدة الجاحدة لشريعة الإسلام. ونص هذا الدستور على أن "لليهود دينهم وللمسلمين دينهم.. ومن تبعنا من يهود فإن لهم النصر والأسوة، غير مظلومين ولا مُتناصر عليهم".[١]

وعندما جاء وفد نصارى "نجران" سنة ١٠ هـ / ٦٣١ م إلى مدينة رسول الله ﷺ فتح لهم أبواب مسجد النبوة، فصلّوا فيه صلاة عيد الفصح، مولّين وجوههم إلى المشرق، ثم تركهم وما يدينون.[٢] وعقد لهم عهدًا عامًّا دائمًا لهم ولسائر من يتدين بالنصرانية عبر الزمان والمكان.

في الخلافة الراشدة

ولقد امتدت هذه السماحة بامتداد الفتوحات الإسلامية التي أقامت "الدولة"، وتركت الناس أحرارًا في "الدين"؛ فرأينا أبا بكر الصديق رضي الله عنه يوصي أمير الجيش الذاهب إلى الشام يزيدَ بن أبي سفيان "إنك ستجد قومًا زعموا أنهم حبسوا أنفسهم لله، فذَرهم وما زعموا أنهم حبسوا أنفسهم له"(رواه مالك في الموطأ).

ووجدنا الراشد الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه يكتب عهد الأمان (العهد العمري) لأهل القُدس (إيليا) عند فتحها سنة ١٥ هـ / ٦٣٥م الذي قرر فيه: "الأمان لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها وبريئها وسائر ملّتها، وأنه لا تُسكن كنائسهم ولا تُهدم، ولا يُنتقص منها ولا من حيزها، ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم، ولا يُكرهون على دينهم، ولا يُضارّ أحد منهم. ولا يسكن بإيليا معهم أحد من اليهود (وفق ما طلبوا)، وعلى أهل إيليا أن يُخرجوا منها الروم واللصوص؛ فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم، ومن أقام منهم فهو آمن؛ ومن أحب من أهل إيليا أن يسير بنفسه وماله مع الروم، ويخلي بيَعهم وصلبهم، فإنهم آمنون على أنفسهم وبيعهم وصلبهم، حتى يبلغوا مأمنهم. وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله، وذمة الخلفاء، وذمة المؤمنين".[٣]

بل لقد امتدت هذه السماحة الإسلامية من إطار التعامل مع أهل الديانات السماوية (اليهود والنصارى) إلى أهل كل العقائد والديانات، فشملت المتدينين بالديانات الوضعية من أهل البلاد التي دخلت في الدولة الإسلامية. وعندما فتحت فارس -وأهلها مجوس عبدة للنار- سأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه مجلس الشورى (مجلس السبعين) عن الموقف من أهل هذه الديانات غير السماوية: "كيف أصنع بالمجوس؟" فوثب عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه فقال: أشهد على رسول الله ﷺ أنه قال: "سُنّوا بهم سنة أهل الكتاب".[٤]

والإسلام لم يفرض على منكريه وجاحديه والكافرين به عقوبة دنيوية، وإنما أعلن أن حِسابهم على الله يوم الدين. ولذلك قال الإسلام حتى للمشركين الذين أشركوا الأوثان والأصنام مع الله تعالى: ﴿وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ۞ وَلاَ أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۞ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾(الكافرون:٤-٦).

ولم يقم رسـول الله ﷺ حدًّا ولا عقوبـة دنيوية على الذين آمنـوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفـروا، ولا على الذين آمنوا وجه النهار وكفروا آخره. فـ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾(البقرة:٢٥٦)؛ لأن الإكراه يثمر نفاقـا، ولا يثمر إيمانًا، إذ الإيمان تصديق قلبي يبلغ مرتبة اليقين، فاجتماعه مع الإكراه مستحيل.

ولم يُقم رسول الله ﷺ وهو رأس الدولة حدًّا على مرتدّ إلا في الحالة الواحدة التي لم يقف فيها الأمر عند الردة عن الدين، وإنما بلغ الأمر مرتبة الحرابة والخروج المسلح على الأمة والدولة؛ فالنفر الذين اغتصبوا إبل الصدقة (مـال الدولة) وقتَلوا الغلمان الذين كانـوا يرعون هذه الإبل (عمّال الدولة) ومثّلوا بجثثهم، وارتدوا عن الإسلام، قد ارتكبوا جريمة مركبة، صنفها الإسلام تحت حد الحرابـة، وليس في باب الردة، وذلك عندما نزل في هؤلاء النفر قول الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِـنْ خِلاَفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۞ إِلاَّ الَّذِيـنَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾(المائدة:٣٣-٣٤).

ولأن هذا هو موقف السماحة الإسلامية من المخالفين في الاعتقاد، فلقد جاء حديث القرآن الكريم عند الإذن بالقتال والتحريض عليه دائمًا وأبدًا في سياق الحديث عن صدّ عدوان الذين اعتدوا على المؤمنين ففتنوهم في دينهم، وأخرجوهم من ديارهم، وظاهروا على إخراجهم من أوطانهم، لا لشيء إلا لإيمانهم بالإسلام ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۞ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ﴾(الحج:٣٩-٤٠). فحرية الدعوة والضمير، وحرية الوطن الإسلامي هما معيار "الولاء" و"البراء"، و"السلم" و"الحرب" بين المسلمين وغير المسلمين. وفي التقعيد لهذه القاعدة الكلية جاءت آيات القرآن الكريم: ﴿لاَ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۞ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (الممتحنة:٨-٩).

وفي التاريخ الإسلامي

وإذا كان المسلمون قد فتحوا في ثمانين عامًا أوسع مما فتح الرومان في ثمانية قرون، فإن كل معارك الفتوحات الإسـلامية قد وقفت عند تحرير الشـرق من قهر القوى الاسـتعمارية وخاصة الروم الذين استعبدوا الشرق وقهروه، ومن قبلهم الإغريق عشرة قرون من الإسـكندر الأكبر في القرن الرابع قبل الميلاد وحتى هرقل في القرن السابع بعد الميلاد.

وقفت كل معارك الفتوحات الإسـلامية، عند تحرير الشرق من هذا القهر السياسي والديني والثقافي والحضاري، ولم تحدث معركة واحدة بين الجيوش الإسلامية وبين أهل البلاد الشرقية التي شهدت معارك تلك الفتوحات. بل لقد حارب أهل تلك البلاد وسـاعدوا جيوش الفتوحات الإسلامية ضد الفرس والروم وهم على دياناتهم القديمة. حدث ذلك بمصر والشام والعراق.

وعندما تم تحرير هذه البلاد، تركت الدولة الإسلامية شعوب تلك البلاد وما يَدينون، حتى إن الذين دخلوا في الإسلام من أهل مصر والشـام وفارس بعد قرن من الفتح لم يزيدوا على عشرين بالماءة من السـكان.[٥] فكانت الدولة الإسلامية حارسة للأرض المحرَّرة من الروم المتربصين الذين ظلوا يجيّشـون الجيوش لإعادة اختطاف الشرق حتى فتح القسطنطينية، كما ظلت هذه الدولة الإسلامية حارسـة لحرّية الضمير والاعتقاد الديني، الذي سبق وقهره الرومان عشرة قرون.

ولقد شهد بهذه الحقيقة -حقيقة سماحة الإسلام مع ديانات شعوب البلاد التي دخلت في دولة الإسلام- التاريخُ والمؤرخون، وغير المسلمين منهم قبل المسلمين.

فهذا الفتح الإسـلامي هو الذي أنقذ المسـيحية الشرقية من الإبادة والزوال، حتى ليمكن أن نقول -دون مبالغة- إنّ بقاء هذه المسيحية الشرقية حتى الآن إنما هو هبَةُ الإسلام وسماحة الإسلام.

فعمرو بن العاص ﷺ هو الـذي أمّن البطرك المصري "بنيامين" على حريته، وأعاده إلى شـعبه بعد ثلاثة عشـر عامًا مـن الهرب والاختفـاء عن أعـين الرومان.. وهو الذي حـرر كنائس نصارى مصر وأَدْيرتهم من الاغتصاب الرومـاني، لا ليجعلها مسـاجد، وإنمـا ليردها لأصحابها النصـارى يتعبـدون فيها بحرية، للمـرة الأولى في تاريخ النصرانيـة المصرية. ومع تحرير الأرض والكنائس والأديرة حرر عمرو بن العاص ﷺ -لأنه مسـلم- ضمائر الشعوب الـتي أدخلتها الفتوحـات في دولة الإسـلام، لأول مرة في تاريخ نصرانية تلك الشـعوب بعـد أن كان الرومان يقدمونهم طعامًا للنيران والأسـود!..

وشهد شاهد من أهلها

وإذا كانت نجاة النصرانية الشرقية من الإبادة الرومانية هي الشاهد الماديّ الأصدق على حقيقة السماحة الإسلامية، فإن المؤرخين النصارى -من الشرق والغرب، القدماء والمحدثين- قد شهدوا هم أيضا لهذه السماحة الإسلامية.

ففي أقدم كتب التاريخ النصرانية حديث عن سماحة عمرو بن العاص ﷺ مع نصارى مصر، وكيف أن تحرير الإسلام لهم من قهر الرومان، وهزيمة الاستعمار الروماني بمصر على يد الجيش الإسلامي الفاتح إنما كان انتقامًا إلهيًّا من ظلم الرومان لمصر واضطهادهم لنصارى مصر.. ففي تاريخ "يوحنا النقيوسي" -وهو معاصر للفتح وشاهد عليه-: "إن الله الذي يصون الحق لم يهمل العالم، وحكم على الظالمين، ولم يرحمهم لتجرّئهم عليه، وردهم إلى يد الإسماعيليين (العرب المسلمين) ثم نهض المسلمون وحازوا كل مدينة مصر.. وكان هرقل حزينًا.. وبسبب هزيمة الروم الذين كانوا في مدينة مصر، وبأمر الله الذي يأخذ أرواح حكّامهم مرض هرقل ومات.. وكان عمرو بن العاص ﷺ يقوى كل يوم في عمله، ويأخذ الضرائب التي حددها، ولم يأخذ شيئًا من مال الكنائس، ولم يرتكب شيئًا ما، سلبًا أو نهبًا، وحافَظ عليها (الكنائس) طوال الأيام".[٦]

إنها شهادة شاهد عيان نصراني على هذه السماحة الإسلامية التي تجسدت على أرض الواقع. ومتى؟ قبل أربعة عشر قرنًا من الزمان. وهي سماحة نابعة من الدين الإسلامي، وليست كحقوق المواطنة التي لم تعرفها المجتمعات العلمانية إلا على أنقاض الدين.

وبعدما استقبل عمرو بن العاص ﷺ البطرك القبطي "بنيامين"، وأمّنه على نفسه وكنائسه ورعيته وحرية عقيدته بل وطلب منه أن يدعو له، أخذ "بنيامين" في زيارة كنائسه وفي إعادة افتتاحها. وكان الناس يستقبلونه فرحين، مرددين العبارات التي تشهد على أن هذا الفتح الإسلامي إنما هو عقاب إلهي للرومان جزاء الظلم الذي أوقعوه بالنصارى المصريين.

ولقد عبّر الأنبا "بنيامين" عن الأمان الذي أحلّته سماحة الإسلام بمصر، على أنقاض القهر والاضطهاد اللذين مارسهما الرومان (النصارى) ضد نصارى مصر. فقال وهو يخطب في دير "مقاريوس": "لقد وجدتُ في الإسكندرية من النجاة والطمأنينة اللتَين كنتُ أنشدهما، بعد الاضطهادات والمظالم التي قام بتمثيلها الظلمة المارقون".[٧]

تلك شهادات شهود العيان ورجال الدين النصارى تقول: إن الفتوحات الإسلامية كانت "الإنقاذ" لشعوب تلك البلاد ودينهم من القهر الروماني، وإن سماحة الإسلام كانت آية من آيات الله، انتقم الله بها من مظالم الرومان. حتى لقد اعتبروا مرض هرقل وموته -وزوال الإمبراطورية الشرقية للرومان- و"سيادة الإسلام" في مصر والشرق آية من آيات الله.

بل لقد زحف رهبان النصرانية المصرية من الأديرة والمغارات التي كانوا هاربين فيها من الاضطهاد الروماني.. زحفوا للقاء عمرو بن العاص ﷺ، حتى "ليُروى أنه خرج للقائه من أديرة وادي النطرون سبعون ألف راهب، بيد كل واحد عكاز، فسلموا عليه. وأنه كتب لهم كتابًا (بالأمان) هو عندهم".[٨]

وحتى يحافظ الأقباط على نعمة هذا التحرير وهذه السماحة الإسلامية، فلقد هبّوا عندما عاد الرومان إلى احتلال الإسكندرية سنة ٢٥ هـ / ٦٤٦م، في عهد الراشد الثالث عثمان بن عفان ﷺ، هبّوا إلى القتال مع الجيش المسلم ضد الرومان النصارى، وطلبوا من الخليفة إعادة عمرو بن العاص لقيادة المعركة. فعاد إلى مصر، واستخلص الإسكندرية ثانية من أيدي الرومان.

تلك هي السماحة الإسلامية.. كما تجلّت في القرآن الكريم.. وفي البيان النبوي للبلاغ القرآني.. وكما تجسدت في المواثيق الدستورية.. وفي الحياة العملية والواقع المعيش للدولة الإسلامية في العهد النبوي والخلافة الراشدة، وعبر تاريخ الإسلام والحضارة الإسلامية.. وكما شهدت بها المصادر التي كتبها المؤرخون الثقات من النصارى الشرقيين والغربيين.. القدماء منهم والمحدثين والمعاصرين، والذين تعمدنا الاعتماد على شهاداتهم هم وحدهم، دون شهادة المؤرخين المسلمين. وذلك عملاً بمنهاج ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا﴾ على هذه السماحة الإسلامية، التي تفرّد بها الإسلام، والتي لا نظير لها خارج إطار الإسلام. ■

(*) كاتب ومفكر إسلامي / مصر.

الهوامش

(١) مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، جمع وتحقيق: د.محمد حميد الله الحيدرآبادي، القاهرة ١٩٥٦م، ص ١٧-٢١.

(٢) سبل الهدى والرشاد لمحمد بن يوسف بن صالح الشامي، ٦٤٢/٦.

(٣) الوثائق السياسية، د.محمد حميد الله، ص ٣٤٥-٣٤٦.

(٤) الوثائق السياسية، د.محمد حميد الله، ص ٣٤٥-٣٤٦.

(٥) المسيحيون واليهود في التاريخ الإسلامي العربي والتركي، فيليب فارج، يوسف كرباج، ترجمة: بشير السباعي، القاهرة ١٩٩٤م، ص ٢٥.

(٦) تاريخ مصر ليوحنا النقيوسي، القاهرة ٢٠٠٠م، ص ٢٠١-٢٠٢.

(٧) تاريخ مصر ليوحنا النقيوسي، ص ٢٢٠.

(٨) تاريخ مصر في العهد البيزنطي، ص ١٩٤.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾(الحج:٦٥).



السماء والحفظ الإلهي

أ.د. زغلول النجار*

تتضمن هذه الآية الكريمة معاني علمية دقيقة، فالسماء -وهي كل ما علانا- تبدأ بغلاف الأرض الهوائي؛ فالفضاء، فأجرام السماء، المشع منها بذاته مثل النجوم، فالمجموعات النجمية والسدم والمجرّات، وغير المشع بذاته كالأقمار والكواكب والمذنبات والنيازك والجزيئات والذرات والغبار الكوني.. وجميع هذه العوالم تحتفظ بكيانها وتماسكها تحت تأثير عدة قوى أهمها الجاذبية والقوى الناشئة عن الحركة. ولقد تجلّت مشيئة الله ورأفته بالعباد بأن هيّأ للأرض غلافا جوّيا يحتوي على العناصر الغازيّة التي لا غنى للحياة عنها، كما أنه يحمي سكّان الأرض من الإشعاعات الكونية، وأسراب الشهب، والنيازك التي تهيم في الفضاء والتي عندما تدنو من الأرض تحترق في جوها العلوي (احتراقا جزئيا أو كليا) قبل أن تصل إلي السطح (العلوي للأرض).

ومن إرادته تعالى ورحمته أنّ سقوط النيازك التي تدمّر سطح الأرض نادر الحدوث جدًّا، وهو يتم في الأماكن الخالية من السكان، وهذه الظاهرة تدل على عناية الله تعالى ورحمته بعباده. وفي هذا تأييد وتصديق لقوله تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾(الحَج:٦٥) أي ويمسك بقدرته السماء كي لا تقع علي الأرض فيهلك من فيها، ﴿إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ أي إلا إذا شاء، وذلك عند قيام الساعة.

مع القمر

إن أقرب أجرام السماء إلينا هو القمر الذي تقدر كتلته بنحو سبعين مليون مليون مليون طنّ، ويدور في مدار حول الأرض يقدر طوله بنحو ٢.٤ مليون كيلومتر بسرعة متوسطة تقدر بنحو كيلومتر واحد في الثانية، وهي نفس سرعة دورانه حول محوره، ولذلك يُرى منه وجه واحد لأهل الأرض.

ومدار القمر حول الأرض، وكذلك مدار الأرض حول الشمس بيضاويّ الشكل (أي إنه على شكل قطع ناقص). ومن قوانين الحركة في المدار البيضاوي (أو مدار القطع الناقص) أنّ

السرعة المحيطية فيه تخضع لقانون تكافؤ المساحات مع الزمن؛ وهذا القانون يقتضي اختلاف مقدار السرعة على طول المحيط، فتزداد نسبيا بالاقتراب النسبي من الأرض، وتزداد بزيادتها قوة الطرد المركزيّ على القمر فتدفعه بعيدا عن الأرض، وإلا اصطدم القمر بالأرض فدمّرها ودمّرته. وتقلّ السرعة المحيطية للقمر كلّما بعُد نسبيّا عن الأرض، فتقلّ القوة الطاردة المركزية على القمر لئلا يخرج عن نطاق جاذبية الأرض، فينطلق إلى فسحة السماء أو تبتلعه الشمس، وأعلى مقدار لسرعة سبح القمر في مداره حول الأرض يقدّر بما قيمته ٣٨٨٨ كيلومترا في الساعة؛ وأقل مقدار لتلك السرعة يقدر بنحو ٣٤٨٣ كيلومترا في الساعة، وهذا يجعل السرعة المتوسطة لسبح القمر في مداره حول الأرض تقدر بنحو ٣٦٧٥ كيلومترا في الساعة.

ونفس القانون (قانون الجري في القطع الناقص) ينطبق على سبح الأرض حول الشمس، وسبح باقي أجرام السماء كل في مداره حول الجرم الأكبر، أو التجمع الأكبر.

ويؤكد علماء الفلك أن أبعد كواكب مجموعتنا الشمسية يبعد عن الشمس بمسافة متوسطة تقدّر بنحو ستة آلاف مليون كيلومتر، وأنّ مجرتنا تحوي قرابة تريليون نجم.

كذلك يحصي علماء الفلك أن بالجزء المدرك من الكون أكثر من مائتي بليون مجرة تتفاوت في أشكالها وأحجامها وكتلها وسرعة دوران كل منها حول محورها، وسرعة جريها في مدارها، وسرعة تباعدها عنا وعن بعضها البعض (كما تتباين في أعداد نجومها) وفي مراحل تطور تلك النجوم، فمن المجرات البيضاويُّ والحلزونيُّ وغير ذلك من الاشكال؛ ومنها المجرات العملاقة التي يصل قطر الواحدة منها إلى ٧٥٠ ألف سنة ضوئية، وتصل كتلتها إلى تريليون مرة قدر كتلة الشمس، ومنها المجرات القزمة التي يكاد يتعدّى طول قطرها ٣,٢٠٠ سنة ضوئية، وتكاد كتلتها تتعدى مليون مرة قدر كتلة الشمس؛ وتقدر كتلة مجرّتنا (سكة التبانة أو درب اللبانة أو الطريق اللبني) بنحو ٢٣٠ بليون مرة قدر كتلة شمسنا (المقدرة بنحو ألفي مليون مليون مليون مليون طنّ).

وتتجمع المجرات في وحدات تضم العشرات منها تُعرف باسم المجموعات المحلية، وتتجمع تلك في وحدات أكبر تضم المئات إلى عشرات الآلاف من المجرات وتعرف باسم التجمعات المجرّية، وتلتقي هذه في تجمعات أكبر تعرف باسم المجموعات المحلية العظمى التي تلتقي بدورها في التجمعات المجرية العظمى، ثم تجمعات التجمعات المجرية العظمى، إلى نهاية لا يعلمها إلا الله.

وفي كل الأحوال يدور الصغير حول الكبير في مدار بيضاوي على هيئة قطع ناقص، تحكمه في ذلك قوانين الحركة في مثل هذا المدار.

والتجمع المجري الأعظم الذي تنتمي إليه مجرتنا يضم مائة من التجمعات المجرية ينتظمها قرص يبلغ قطره مئة مليون من السنين الضوئية وسمكه عشر ذلك (وهي نفس أبعاد مجرتنا مضروبا في ألف).

وهذه الأعداد المذهلة مما قد علمنا من أجرام الجزء المدرك من السماء الدنيا لا تمثل إلا نحو عشرة بالمئة من مجموع كتلة ذلك الجزء المدرك، وهي ممسوكة بشدة إلى بعضها البعض، وإلا لزالت وانهارت.. ولذلك قال ربنا تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾(الحج:٦٥). وقال عزّ من قائل: ﴿إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولاَ وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾(فاطر:٤١). وقال ﷻ: ﴿اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى﴾(الرعد:٢). وقال سبحانه: ﴿أَفَلاَ يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۞ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾(الغاشية:١٧-١٨).

وقد تمكنت العلوم المكتسبة من التعرف على عدد من القوى التي تمسك بأجرام السماء على النحو التالي:

١- قوة الجاذبية

وهي أضعف القوى المعروفة على المدى القصير، ولكن نظرا لطبيعتها التراكمية فإنها تتزايد باستمرار على المسافات الطويلة حتى تصبح القوة الرابطة لكل أجزاء السماوات والأرض بإرادة الخالق ﷻ حيث تمسك بمختلف أجرام السماء الدنيا على الأقل، وتجمّعاتها من الكواكب وأقمارها، والنجوم وتوابعها، وتجمعاتها على كل المستويات إلى نهاية لا يعلمها إلا الله.. ولولا هذا الرباط المحكم الذي أوجده الخالق ﷻ لانفرط عقد الكون.

ويفترض وجود قوة الجاذبية على هيئة جسيمات خاصة في داخل الذرة لم تكتشف بعد، واقترح لها اسم الجسيم الجاذب، أو الجرافيتون الذي يعتقد بأنه يتحرك بسرعة الضوء، ليربط بين مختلف أجزاء الكون حسب قانون محكم دقيق تزداد فيه قوة الجاذبية بزيادة الكتلة للجرمين المتجاذبين، وتتناقص بزيادة المسافة الفاصلة بينهما. وقد لعبت الجاذبية دورا مهمّا في تكثيف الدخان الكوني الذي نشأ عن واقعة الانفجار العظيم، على هيئة كل صور المادة الموجودة في السماء الدنيا (على أقلّ تقدير)، كما لعبت ولا تزال تلعب دورا مهما في إمساك الأرض بغلافَيها الغازي والمائي، وبكل صور الحياة والهيئات الصخرية من فوقها.

٢- القوة النووية الشديدة

وهي القوة التي تقوم بربط الجسيمات الأولية للمادة في داخل نواة الذرة، والتي تعمل على التحام نوى الذرّات الخفيفة مع بعضها البعض لتكون سلاسل من نوى الذرات الأثقل في عمليات الاندماج النووي. وهي أشد أنواع القوى المعروفة لنا على الأبعاد المتناهية الصغر، ولكنها تضعف باستمرار عبر المسافات الطويلة. وعلى ذلك فدَورها يكاد يكون محصورا في داخل نوى الذرات، وبين تلك النوى ومثيلاتها. وتحمل هذه القوة على جسيمات تسمّى باسم القوة اللاحمة أو الجليون.

٣- القوة الذرية الضعيفة

وتحمل على جسيمات تسمى باسم اليوزونات، وهي إمّا سالبة أو عديمة الشحنة. وتربط الإليكترونات الدائرة في فلك النواة. وهي لضعفها تؤدّي إلى تفكك تلك الجسيمات الأولية للمادة كما يحدث في تحلل العناصر المشعة.

٤- القوة الكهرومغناطيسية

وتحمل على هيئة فوتونات الطاقة أو ما يعرف باسم الكمّ الضوئي. وهذه الفوتونات تنطلق بسرعة الضوء لتؤثر على جميع الجسيمات التي تحمل شحنات كهربائية. ومن ثم فهي تؤدي إلى تكون الإشعاع الكهرومغناطيسي وتؤثر في جميع التفاعلات الكيميائية.

وكما تم توحيد قوّتَي الكهرباء والمغناطيسية في قوة واحدة، يحاول العلماء جمع هذه القوة مع القوة الذرية الضعيفة، فيما يعرف باسم القوة الكهربائية الضعيفة، لأنه لا يمكن فصل هاتين القوتين في درجات الحرارة العليا.

وفي نظريات التوحيد الكبرى يحاول عدد من العلماء جمع القوة الكهربائية الضعيفة مع القوة النووية الشديدة في قوة كبرى واحدة، بل ضم تلك القوة الكبرى مع قوة الجاذبية فيما يسمى باسم "الجاذبية العظمى" التي تربط كل صور المادة في الكون اليوم، والتي يعتقد أنها كانت القوة الوحيدة السائدة في درجات الحرارة العليا عند بدء خلق الكون، ثم تمايزت إلى القوى الأربع المعروفة لنا اليوم والتي تعتبر وجوها أربعة لتلك القوة الكونية الواحدة التي تشهد لله تعالى بالوحدانية المطلقة فوق كل خلقه.

ومن هنا ظهرت نظرية الخيوط فائقة الدقة التي تفترض تكوّن اللبنات الأساسية للمادة من خيوط فائقة الدقة تلتفّ حول ذواتها فتبدو كما لو كانت نقاطا متناهية الضآلة في الحجم مشابهة بذلك شريط الحمض النووي في داخل نواة الخلية الحية الذي يتكدس على ذاته في حيز لا يزيد على الواحد من مليون من المليمتر المكعب ولكنه إذا فرد يبلغ طوله قرابة المترين يضمان ١٨,٦ بليون قاعدة كيميائية في ترتيب غاية في الإحكام وغاية في الإتقان. وتقترح نظرية الخيوط فائقة الدقة، وجودَ مادة خفية تتعامل مع المادة الظاهرة بواسطة قوة الجاذبية.

وهنا تتّضح روعة النص القرآني المعجز الذي نحن بصدده، والنصوص الأخرى المشابهة له في التعبير عن العديد من الحقائق العلمية التي لم يصل إليها إدراك الإنسان إلا بعد مجاهدة استغرقت آلاف العلماء وعشرات العقود حتى وصلوا إلى إدراك شيء منها في السنوات المتأخرة من القرن العشرين.

ووُرود تلك الحقائق في كتاب الله الذي أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله ﷺ من قبل ألف وأربعمائة سنة، في مجتمع سادته أمّيّة القراءة والكتابة، وأمّية العلم لَمما يقطع بالشهادة للقرآن الكريم بأنه لا يمكن أن يكون صناعة بشرية، بل هو كلام الله الخالق، ويشهد للنبي والرسول الخاتم الذي تلقاه بالنبوة وبالرسالة. ■

(*) أستاذ علوم الأرض ورئيس لجنة الإعجاز العلمي بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية / مصر.



وباسمك أفتح الملكوت

أ.د. حسن الأمراني*

يقرّبني من الرحمنْ،
هواك فكيف أجحده؟
يزمّلني،
يدثّرني،
وينشر لي بساط الحبّ والتقوى،
فكيف يدقّ بابي ثم أطرده؟!
وفي يمناه أطباقٌ من السلوى،
وفي اليسرى أباريق الهوى الفتّان،
وظلّ وارفٌ فينان؟
أنا ما قلت:
"أوشِك يا خليّ القلب أعبده"،
وكيف وجنّة المأوى،
حبيبي أننا في حضرة الرّحمنْ،
سويّا نسكب الآهات..
نعبده؟
يقرّبني نداؤك،
من جنانِ الخلْد والرضوانْ،
ويمنحني عطاياه،
فكيف يردّ هذا القلبُ،
ما أعطاه مولاه؟!
يُنصّبني حنانُك،
فوق عرش الحبّ سلطانًا،
تدور بأمره الأفلاكْ،
يُزَيّنُ تاجيَ الذهبيّ نورُ سناكْ،
لسوف أغيظ باسمك،
ما يزخرفُ شاعر الطاغوتْ،
وأجعل وجهك الوضّاحَ،
مفتاحًا إلى الملكوتْ،
فِدًى لِوشاحك الخفّاقِ،
كلّ زخارف الدنيا،
تنزّل باسم خالقه،
على قلب الفتى وحيا،
أرشّ حروفك الخضراء باسم الله،
فوق مروج أحزاني،
وينطلق الحداءُ:
"الرائدُ الميمون لا يكذبْ"
فتغدو النونُ فُلكًا صاحبته الريحْ،
رخاءً نحو غايته،
وأهتف باسم منْ حلّى جبينك،
بالسّنا القدسيّ ثجّاجا،
وأعطاك الهوى العذريّ وهّاجا..
وأعطاني،
وأعلى شأن هذا الطينْ،
وأكرمه ونعّمه،
وأسْبغَ من هواكِ،
على الظلال بهيَّ أردانِ،
سأتلو سورة الرحمنْ،
﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ۞ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾
وأهتف: يا حبيب القلب!
سبحان الذي أسرى بقلبَينا،
من المشرق والمغربْ،
ليلتقيا على عتبات مولانا (جَلَّ جَلَالُهُ)،
نُسبّحه،
نقدّسه ونعبده،
ويغدو كلُّ حرف من قصائدنا،
فمًا للحمد والتّسبيحْ...

(*) رئيس تحرير مجلة المشكاة / المغرب.

إصبِر لتنجح... وعلى الحق فاثبُتْ...
فالصبر والثبات مفتاحا كُلِّ الأبواب الموصدة...

***

أنا عين عبد الله

أ.د. عرفان يلماز*

حبيبي عبد الله! إن القلب والمعدة والأمعاء والكلية والرئة والبنكرياس وغيرها من الأعضاء التي وُهبت لك وجُعلت أمانة لديك تبدو عليها آثار صنعة حكيمة وزخارف جميلة وفنٍّ راق. كل هذه الأعضاء قد وُضعت في تجاويف جسدك. وأرجو ألا تحسب أنني أستهين بها وأستصغرها، فهي جميعًا أعضاء مذهلة وهي ضرورية لكي تستمر أنت في حياتك دون مشاكل ومنغصات. ولكن جميع علماء الفيزيولوجيا الحديثة وجميع أطباء القرون الوسطى المشهورين يذكرون أن الوظائف التي تؤدّيها هذه الأعضاء وظائف نباتية مما يعني أن الوظائف الأساسية التي تقوم بها هذه الأعضاء هي وظائف تقوم النباتات بأدائها أيضًا.

الوظائف النباتية والحيوانية للأعضاء

إن العمليات والوظائف الضرورية الأربع لبقاء الحياة واستمرارها -وهي عمليات الهضم والتنفّس والدوران وطرح الفضلات- عمليات ووظائف تقوم بها النباتات كذلك، ولكن بأعضاء مختلفة. وإذا غابت هذه الوظائف أو توقفت، ظهَر الموت؛ أي غاب ما نسميه بـ"جوهر الحياة". وبسبب هذه الوظائف المشتركة مع النباتات سميت هذه الوظائف التي تقوم بها هذه الأعضاء الموجودة في جسدك بـ"الوظائف النباتية". فإذا كانت هذه الوظائف الأربع تعمل، فمعنى هذا أن ذلك المخلوق الحي مستمر في الحياة، ولكن هذه الحياة في مستوى النبات. ولكي يمكن الارتقاء إلى مستوى الحياة الحيوانية يجب -علاوة على هذه الوظائف- وجود وظائف إضافية أخرى مثل الوظائف العصَبية والحركية والحسية.

فإذا لم تكن هذه الوظائف الحيوانية موجودة فإن ذلك الحي يكون في مرتبة النباتات. وأنت كثيرًا ما تقرأ في الصحف "أن الشخص الفلاني دخل في حياة نباتية"، والمقصود بالدخول في حياة نباتية أن ذلك الشخص فقَدَ الوظائف الحيوانية؛ أي فقَدَ أعضاء الحس والمنظومة العصبية وقابلية الحركة، وأصبح مثل النباتات عاجزًا عن الحركة، ولكن استمرت عمليات التنفّس والدوران والهضم وطرح الفضلات عنده في العمل دون شعور منه.

وهناك العديد من اللطائف الخاصة بالإنسان وَحده مثل العقل والإدراك والإرادة والشعور التي وهبت للإنسان علاوة على الوظائف الحيوانية. ولا يمكن إرجاع هذه اللطائف إلى عضو معيّن إرجاعًا تامًّا. فهي لطائف خاصة، وهي تظهر مرتبطة بالوظائف الحيوانية من جهة، وبروح الإنسان من جهة أخرى.

منطقة الرأس وخطورتها

ولا توجد مراكز الأعضاء التي تقوم بالوظائف الحيوانية في جذع

الإنسان، بل وُزّعت بشكل مذهــل ودقيــق في أماكن خاصة في الرأس الذي هو آية من آيات الفن. فمراكز الحواس كالرؤْيَة والســمع واللمس والتذوّق والشــمّ، وكذلك مراكز الســيطرة على الحركة موجودة في رأسك. وقد تم ربط هذه المراكز الموجودة في رأســك داخل الدماغ الذي يعد أعقد جهاز نعرفه في الكون، بجميع أعضاء الجســم الأخرى من خلال منظومـــة عصبية. لذلك فإن منطقة الرأس منطقة في غاية الأهمية. ولكونها تحمل تحفًا نفيســة وغالية فهي مثل دكان مملوء بالتحف والمجَوهَرات وهي منطقة حساســة ومعرضة للأذى وللخطر. فإن دخل مسمار في رجلك فســتتألم، ولكنك تستطيع معالجة هذا الجرح دون أن تصاب بضرر كبير؛ أما إن دخل مســمار في أي عضو من أعضاء الرأس فســيولد نتائــج خطيرة تتراوح بين فقد ذلك العضو لوظيفته والموت.

نعمة البصر

وكمـــا فهمتَ من هـــذه المقدمة فإن منطقة الـــرأس هي مركز الوظائف الحيوانية ومركز اللطائف الإنســانية المقامة على هذه الوظائـــف. وعند ذكر منطقة الرأس أتبادر أنا (العين) إلى الذهن في الوهلة الأولى. لماذا؟ لأنك لا تســتطيع قراءة هذه الســطور أمامك إلا بواسطتي، ولا تســتطيع رؤية ومشاهدة جميع أنواع الجمال التي يحفل بها الكون إلا بفضلي.

فلو لم يخلقني الله تعالى ويضعني في تجويفَين في الرأس لما عرفت شــيئًا لا عن الضياء ولا عن الألوان ولا عن الأزهار والورود ولا عن جمال البلابل. ولولاي لخفت من المشي خطوة واحدة، لأنك لا تســتطيع رؤية الأرض التي تطؤها. فعملية الرؤية لا تصل إلى دماغك ولا تتم إلا بواسطتي. ولو لم يخلقني الله تعالى ويخلق أعضاء الحس الأخرى لما وصلت الإنسانية إلى المستوى الحاليّ للعلم، بل لبقي دون هذا المســتوى بكثير، لأن أهــم طريق للحصول على العلم يمر من خلال الأعضاء السليمة للحواس، ولا يمكن الوصول إلى معرفة خصائص الأشياء وتسميتها إلا بواسطتها، حيث يمكن آنذاك تسجيلها وتثبيتها ووضعها في صيغ معادلات وقوانين.

ولكـــي تعـــرف أن الماء شفاف والتّفّاح أحمر والكمثرَى صفراء والورقـــة خضراء وزهرة البنفسج بنفســجية اللون فأنت محتاج إليّ أولاً. ولكي لا تصطدم بالجدران عند مشيك، ولكي تميز وجه أمّك وأبيــك وأصدقائك فأنت في حاجة إليّ. أنت في حاجة إليّ عندما تأكل، وعندما تشــرب وعندما تكتب وعندما تقرأ. وجرّب محاولة المشــي في الطريق لمدة عشر ثوان وأنت مغمض العينين فماذا سيحدث آنذاك؟ سيكون الأمر صعباً عليك، أليس كذلك؟! سيلفّك الخوف من الاصطدام بشيء أو من السقوط.

يا عبد الله! تنفَّسْ عميقًا واشــكر الله تعالى ربنا من أعماق قلبك وأنت مغمض العينين. فأنت لا تصبر على الظلام عشــر ثوانٍ، فما بالك لو لم تعرف الضياء والنور طوال حياتك؟ وفكّر من حين لآخر في إخوانك الذيــن فقدوا نعمة البصر (بناءً على حِكم عديدة وامتحانا لهم) واشكر ربك لأنه ما ابتلاك بمثل هذا، وتضرّع إليه وادعه لكي يهب الصبر لهم لكونهم محرومين منّي.

بعض التفاصيل عني

والآن سأشرح بعض خواص بُنيتي ودقائقها... واعلم أن "جارلس داروِن" عندما شــاهد بدائع صنع الله فيّ أدرك أن من المستحيل ظهــوري تلقائيا أو عن طريق المصادفات العشــوائية في الطبيعة التي لا عقل لها ولا شــعور، فما تمالك أن قال: "أكاد أُجَنُّ لأنني لا أستطيع تفسير ظهور مثل هذه الأعضاء المعقدة التركيب عن طريق المصادفات".

إن الجمال والدقة الموجودة في تركيــبي لا نظير لها في أي آلة تصوير.. إن نظــام عملي مرتبط بالخصائص التي وهبها الله ربنا للضوء وبقوانينه. لذا فقد درستم ودققتم كيفية عملي والمقاييس الموجودة عندي وقمتم بصنع أجهزة تصوير (كاميرات) بسيطة في البداية ثم نجحتم في صنع كاميرات جيدة وممتازة. ولكن إياكم ومقارنتي بهذه الكاميرات لأن النتيجة ســتكون مخجلة لكم، فإن أفضل كاميراتكم تُعدُّ لعبة أطفال بســيطة بالنسبة إلي. وكانت الكاميرا الأولى البسيطة التي صنعتموها عبارة عن صندوق خشبي

مغطاة بقماش أسود، وانقضت ١٧٥ سنة على هذه الكاميرا البسيطة، وعمل مئات وآلاف الفنيين والمهندسين في تطوير الكاميرات طوال هذه السنوات. وأخيرًا نجحتم في صنع كاميرات جيدة ومعقدة مثل الكاميرات التلفزيونية والكاميرات الرقمية.

فهل يستطيع أحد أن يدّعي بأن تلك الكاميرا البسيطة التي كانت عبارة عن صندوق بسيط وعدسة تطورت تلقائيًا وانقلبت إلى كاميرا حديثة متقدمة؟ وهل يمكن عزو جهود المئات من العلماء الذين استعملوا تراكمهم العلمي والفني لهذا الغرض إلى المصادفات العشوائية؟ وهل يمكن أن تتطور عيون حيوان رخوي أو عين حشرة إلى عين إنسان؟ طبعًا يستحيل هذا. ولكي تدرك هذا جيداً وتفهمه، عليك أن تملك بعض المعلومات عن تركيبي وطبيعة بُنيتي على المستوى المجهري.

تركيبتي العجيبة

أنا على شكل كرة وأملك بنية قوية ومتينة ومرنة في الوقت نفسه ومركبة من طبقات عدة وأُشْبِه كبسولة مسدودة. يبلغ قطري ٢.٥ سم. وفي قسمي الخارجي يوجد غشاء صلب أبيض (sclera). ويتم حفظي ووقايتي بطبقة متينة مركبة من ألياف رابطة كثيفة. ويوجد تحت هذه الطبقة غلاف العين المشيمي (choroid) وهو عبارة عن طبقة تنتشر فيها كشبكة الأوعية الدموية التي تقوم بتغذيتي. وفي نهاية القسم الداخلي توجد شبكية العين (retina) وهي من أهم مكوناتي. وتحتوي على المستقبلات الضوئية. وتحتوي كل طبقة من هذه الطبقات على طبقات فرعية ولكل منها وظيفة خاصة، ولكني لا أريد هنا الدخول إلى التفاصيل.

والطرف الأمامي من بُنيتي الكروية محدَّبة بعض الشيء نحو الأمام والقسم الوسَطي من الطبقة الصلبة الموجودة في الأمام جُعل شفافًا لكي يسمح بمرور الضوء من خلاله ويدعى القرنية (cornea). وتغلف طبقة من غشاء مخاطي (mucosa) الجزء الخارجي من هذا القسم الشفاف لكي تمنع جفافي وهو غشاء مخاطي موجود في باطن الجفن.

ولكي يتيسر جمع أشعّة الضوء في بؤرة واحدة فقد زِيد في تحدب القرنية في القسم الأمامي منها أكثر من المناطق الأخرى.



ويوجد خلف هذا القسم المحدب غرفة صغيرة وعدسة تقوم بفصل هذا القسم عن الغرفة الأصلية الكبيرة. وهناك سائل شفاف في الغرفة الصغيرة الموجودة بين العدسة والقرنية، يضفي عليّ اللون. وهو القزحية أو حدقة العين التي تبدو كثقب أسود. وتتركب قزحية العين (الحدقة) من عضلة خاصة تستطيع التمدد والانكماش لتضبط بذلك مقدار الضوء الداخل من خلال الثقب الموجود في وسطها. فعند اشتداد الضوء تنكمش لمنع دخول ضوء أكثر من المطلوب للحيلولة دون تضرر الشبكية وخدشها، وعندما يقلّ الضوء تنفتح وتتوسع للسماح بمقدار أكثر من الضوء الساقط على الشبكية لكي تتم عملية الرؤية بشكل أفضل.

تقع الأربطة التي تمسك بالعدسة في مكانها وكذلك العضلة -التي تقوم بتغيير شكل العدسة لتغيير مساحة البؤرة وضبطها- أمام الطبقة التي توجد فيها الشعيرات الدموية. وعندما تنظر إلى القريب أو إلى البعيد فإن أحد العوامل التي تضبط مسافة البؤرة بشكل صحيح هو تغيير سمك العدسة، وتقوم بهذا العمل الأربطة الماسكة بالعدسة حيث تنكمش وتنبسط حسبما يتطلب الأمر.

وتوجد خلف العدسة الغرفة الكبيرة (الغرفة المظلمة) المملوءة بسائل حليبي نصف شفاف. وبفضل كثافة السائل الزجاجي نصف الشفاف الذي يملأ هذه الغرفة وبفضل الضغط الذي يولده هذا السائل يأخذ شكلي الكرويُّ متانة وقوة أكثر. وتوجد في الطبقة الشبكية خلف هذه الغرفة المظلمة خلايا العُصيّات الحساسة للضوء وهي بشكل أنابيب ومخاريط. وتسقط الصور التي يشكلها الضوء الداخل من خلال القرنية والعدسة -الموجودة في الأمام- بشكل معكوس على الشبكية. وتوجد المستقبلات الضوئية (الخلايا الضوئية) بشكل كثيف في النُّقرة أو الحفيرة

المركزية حيث تتشكل أوضح الصور هنا. وتَشَكُّل صور الأشياء هنا لا يعني رؤية تلك الأشياء بعد، لأن إدراك الصور ومشاهدتها فعليًّا لا تتم إلا بعد وصول هذه إلى المركز البصري في الدماغ، وإثارتها لمجموعة الخلايا الخاصة. ونحن نطلق اسم "الرؤية" على هذا الإحساس أو الإثارة المتولدة هناك.

إنّ سرعة التفاعلات الكيماوية والكهربائية التي تجري في هذه الخلايا نتيجة لتأثير الضوء سرعةٌ كبيرة جدًّا بحيث يندهش العقل منها. إنّ الإشارات الكهربائية المتولدة في خلايا المستقبلات الضوئية (نتيجة لتأثير الضوء) تنتقل بواسطة العصب البصري إلى الدماغ حيث تتم عملية الرؤية هناك. لذا فإنني أُعَدّ واسطةً فقط في عملية الرؤية.

التدابير المتخذة لحمايتي

ونظرًا لأنني عضو حساس لا أتحمل أي ضرر فقد حفظني الخالق ووضعني في تجويفين موجودين في جمجمتك؛ أي وضعني ضمن علبة صلبة وأمينة جدًّا، تتألف من الفك الأعلى، والعظم الوجني، والقسم الأسفل من العظم الجبهي، والعظم الدمعي، والعظم المصفوي (عظم تجويف الأنف)، والعظم الكُرواني. ولا تقتصر الإجراءات المتخذة لوقايتي على هذا فقط، فقد جهزني الخالق بجفنين؛ الجفن الأعلى والجفن الأسفل. وهما ينغلقان بشكل آلي عند ظهور أي خطر من جهتي الأمامية. وبفضل انفتاح جَفنيَّ وانغلاقهما في فترات معينة تتم عملية تنظيف طبقتي الشفافة الأمامية (القرنية). ويشبه هذا قيام منظفات الزجاجة الأمامية لسيارتكم بعملية التنظيف لها. وأجفاني ليست عبارة عن جلد اعتيادي ذي طيات، فهناك منظومة كبيرة من الغدد تقوم بترطيب القسم الداخلي للأشفار على الدوام وتدهينه ولصق ذرات التراب ببعضها وتنظيفها. وعندما تحزن وتتأثر كثيرًا تقوم الغدد الدمعية الموجودة بيني وبين الأنف بإفراز الدموع التي تملأ في بادئ الأمر كِيس الدموع، ثم تندفع بواسطة قناتين وتقوم بغسلي جيدًا. وعندما تبكي كثيرًا يقوم كيس الدموع بإرسال الدموع الفائضة عن طريق قناة ثالثة إلى الأنف، وهكذا يتم تنظيف هذه المنطقة كذلك.

وكلما زاد عدد أجزاء أي آلة أو جهاز كلما زاد احتمال عطبه. فإذا علمت أنني أتكوّن من عشرات الأجزاء، وكل جزء منها مكوّن من ملايين الخلايا، وهذه الأجزاء تكوّن منظومة تعمل بتلاؤم تام وبديع، علمت أنه من الممكن وقوع عطب في أي جزء من هذه الأجزاء احتمال وارد. ولكن خالقنا تعالى صاحبَ القدرة اللانهائية وضعنا في رؤوس الملايين من بني الإنسان لتنوير عالمهم دون أن يظهر أي عطب عندنا في أغلب الأحيان.

أحيانا تظهر بعض الأعطاب والأمراض عندنا لكي يرينا الله تعالى مقدار عجزنا وضعفنا. ولي نصيب أيضاً من هذه الأعطاب، ومن ذلك العطَب الذي يصيبني في موضوع انكسار الضوء وفي مجال رؤية البعيد أو القريب. وتستطيعون أنتم الآن تعديل هذه الأعطاب ببعض العدسات، ولكن من الصعب في معظم الأحيان شفاءُ أو علاج معظم الأعطاب التي تصاب بها خلايا مستقبلات الضوء.

ويجب أن يكون ضغط السائل الموجود في الغرفة الكبيرة متوازنًا أيضًا. فإن زاد هذا الضغط حصل صداع شديد ويطلق أطباؤكم على هذا اسم "كلوكوم". فإن فقدت العدسة شفافيتها فهذا يعني حصول "عتمة عدسة العين (cataract)". ثم هناك أمراض عديدة تصيبني من جراء الالتهابات التي تسببها بعض البكتريات والفيروسات، ولكن خلايا منظومة الدفاع الموجودة عندك تستطيع -بإذن الله تعالى- التغلب على هذه الجراثيم. وهناك أمراض أخرى مثل مرض السكري ونقص فيتامين A، تؤثر فيّ تأثيرًا سلبيًّا وتصلب الشرايين، وتؤدي إلى الإخلال في وظائفي، ويؤدي هذا إلى مشاكل كبيرة لك في حياتك.

يا عبد الله! أستطيع أن أحدثك عن نفسي بصفحات وصفحات، ولكني لا أود أن أشغل ذهنك بمعلومات عميقة في التشريح والفيزيولوجيا؛ لأن غايتي الرئيسية هي إظهار الصنعة الإلهية البديعة الموجودة في كل عضو من أعضائك، وإظهار حكمته الدقيقة، ومساعدتك في الوصول إلى مستوى من الفكر بحيث تقوم بشكره وحمده. وما أسعدني إن نجحت في هذا!.. ■

(*) جامعة ٩ أيلول / تركيا. الترجمة عن التركية: أورخان محمد علي.

وا ابناه...
لتكن أنتَ الفداء!

نور الدين صواش*

جلس على مقعده وراء المكتب وراح يفكّر بالشخصيات التي سيدعوها إلى حفل التخرّج للمدرسة؛ ينبغي أن يكون حفلا رائعًا يترك في نفوس الحاضرين أثرا لا يُنسى.. شرع بكتابة أسماء المدعوين على بطاقات الدعوة: "السيد رئيس الوزراء الموقر"، ثم كتب أسماء أصحاب المناصب الأخرى واحدًا بعد الآخر. ليس بالأمد البعيد، بل منذ بضعة أشهر فقط فاز تلاميذه بميدالية ذهبية في مسابقة الفيزياء الدولية. منح نفسه فترة استراحة قصيرة ليشرب كوبا من الشاي، وما لبث أن اجتذبته أطياف من الذكريات.

كان قد تخرّج من الجامعة بتقدير ممتاز. كم كانت أمُّه سعيدة بنجاحه، أمه التي انتظرت ذلك اليوم بفارغ الصبر منذ سنوات ليقف إلى جانبها ويخفف عنها آلام الوحدة. فمنذ أن ارتحل والدُه إلى الرفيق الأعلى وهي تعاني من قسوة الوحدة في منزل ولدها الأكبر بسبب المعاملة السيئة التي تَلْقاها من زوجته. لكنها دفنت آلامها في قلبها واعتصمت بالصبر الجميل منتظرة اليوم الذي تزول فيه كل هذه المآسي. "ولدي مثال للوفاء، وسوف أزوّجه بفتاة جميلة ومؤدَّبة، بعدها نعيش معا حياة سعيدة هنيئة". كل شيء سيتغير بعودة ولدها. لن تتساقط براعم الأمل مبكرا بعد اليوم، ولن تنحدر دموع الحزن من عينيها، ولن تناديها نجوم الغربة في السماء كل ليلة، ولن تسمع النغمات الحزينة في المذياع. ستهبّ نسمات السعادة والأمل على ربوع قلبها بعد قدوم ولدها العزيز.

....

سمع دقات خفيفة على الباب. ها هو الشاي قد حضر. ارتشف رشفة، ثم عاد إلى ذكرياته الحبيبة، ارتسمت صورة أمه أمام عينيه. كم كانت سعيدة عندما قدّم لها شهادة الجامعة، ترقرقت عيناها بدموع الفرَح، وضمّته إلى صدرها بحنان "أخيرا عدت إلى أمك يا ولدي".

لكن كيف يقول لها إنه عُيّن مدرسا في إحدى دول آسيا الوسطى التركيّة. ألن يحطم ذلك كل أحلامها؟ عليه أن يخبرها، ولكن كيف؟ وهل يحتمل قلبُها الرقيق المجروح؟ إلا أنه لا بد من ذلك. لا بد أن يُقنع والدته بأنّ آلاف الأعين تنتظره في تلك الأراضي البعيدة. عليه أن يسرع لسَقي تلك البقاع الظامئة مع من ذهبوا قبله من الشباب التربويين الأطهار... عليه أن يذهب حاملا معه رسالة الرحمة والحب ليغرسها في القلوب الضائعة الحائرة... عليه أن يذهب حاملا معه القلَم والكتاب والإيمان والفضيلة. لا بد من تلبية نداء "الأستاذ المربّي" الذي تشبَّع بأفكاره النبيلة. كم سكب "الأستاذ المربّي" من الدموع من أجل أن يبعث الروح من جديد في تلك الأراضي الميتة، وكم



أُغمي عليه وهو يدعو إلى الهجرة لنشر نور الحياة في تلك الديار المظلمة. لا بدّ من الهجرة... ألم يهاجر أصحاب رســـول الله ﷺ إلى أرجاء العالم لنَفْس الغاية النبيلة؟!

اســـتغرق في تفكيره ثلاثة أيام. كيف يقـــول ذلك لأمه يا تُرى؟ حـــاول مرّات ومرات، ولكن بدون جدوى. الأيام مرّت بسرعة وموعد السفر أصبح وشـــيكا. غدًا يسافر إلى إسطنبول ومنها إلى آســـيا الوســـطى. جلس إلى جانبها برفق، ونظر إليها بحنان مشوب بشيء من القلَق. أحسّت بأنّ شيئا خطيرا سيقوله، أطرق إلى الأرض وقد اغرَورقت عيناه بالدموع وعلقت كلماته في حلقه، ثم ارتمى في حجرها مجهشا بالبكاء "أمي الحبيبة، يا أعزَّ إنســـان في الوجود...أُمّاه..." رفع رأسه ونظر إليها مليا ثم تمتم بعبـــارات متقطّعة "عليّ أن أذهب يا أماه... عليّ أن أذهب إلى آسيا الوسطى..."

لم يســـتطع أن يقول ســـوى هذه الكلمـــات... خيّم على الغرفة صمت كئيب، بـــدَت الأم مذهولة غير مصدقة... لكن بعد لحظات صحَت من ذهولها، وربّتت على كتفه بحنان وسط دموع ساخنة تنحدر على خدَّيها. كانت "صَبريّة هَانم" من الذين يعرفون معنى الرســـالة التي يؤديها ولدهـــا ورفاقه. فقالت وهي تمسح دموعها "صَحِبتْك السلامة يا ولدي، وسأصبر على فراقك وعلى إساءة زوجة أخيك، فاطمئنّ بالاً".

في المســـاء الذي ودعت فلذة كبدها إلى إســـطنبول سكبت دموعا غزيرة. كانت قد جهزت حقيبته بنفسها، وأعدت له شيئا من الطعام ليأكلـــه أثناء الطريق. لقد تركها وديعة عند الله وليس عند زوجة أخيه. ظلّت تُلوّح له يدها حتى غاب في الأفق البعيد.

وفي صبـــاح اليوم التـــالي وقبل أن يركب الطائـــرة اتصل بها لآخـــر مرة. كانت تبكي... لكن مـــن الفرح هذه المرة "اذهب يا بني رافقتك الســـلامة، لقد حدَث شـــيء لا يصدق! هذا الصباح جاءتـــني زوجةُ أخيك وارتمت بين يـــدي باكية تعتذر إليّ وتطلب مني الســـماح: أرجوك سامحيني يا أمي سامحيني... قالت أتاها الليلة الحبيبُ المصطفـــى ﷺ في المنام وحذّرها بشـــأني وطلب منها ألا تُحزنني... فلا تقلق بشأني يا بنيّ، اذهب صحبَتك السلامة..."

....

وبعد بضع ســـنوات عاد لزيارة أمه فزوَّجته من فتاة تناسبه وتُسعده. قالت "حســـبي أن رأيتُك سعيدًا يا ولدي.. ولكن إذا رزقكمـــا الله ولدًا فلا تَحرماني من رؤيتـــه، لأن قلبي لن يصبر علـــى فراقكما وفراق حفيدي بعد الآن". وفي العام التالي جاؤوا لزيارتها وقد بلغ الطفل شهرين من العمر.

مضت الأيام بســـرعة... بأفراحها ومآسيها... قضى أعواما طويلة في البلاد التي اعتبرها وطنه الثاني... تعلّم في هذه الأراضي النائية معنى الحياة، ومعنى خدمة الإنسانية، ومعنى غاية الوجود، ومعنى العمل لكسب مرضاة الخالق سبحانه؛ أحبّ الناس في الله وخفق قلبه لله.. وبعد أن أصبح مديرًا عمل بجدّ، وســـهر على تعليم تلاميذه وتربيتهم. لقد كانوا كل شيء بالنسبة له في الحياة، فنال ثقة أهل البلد، وحصلت مدرســـته على جوائز عديدة... تنفّس الصعداء... "الحمد لله، كل ذلك من فضل ربّي".

كان التلاميذ يلعبون بمرَح في ساحة المدرسة وأصواتهم الجميلة تملأ الفضاء. ولكن... ما لتلك الأصوات المرحة تحولت فجأة إلى صرخات مدوية!..

سمع طرَقات قلقةً على الباب مع صوت مذعور لتلميذ خائف "أســـتاذ!.. النجدة!.." انتفض من مكانه، "أستاذ!.. أستاذ!.. أحد التلاميذ... سقط من الطابق الثاني!..."

أظلم العالم في عينيه، شـــعر كأن الدنيا تدور، انحلت مفاصله وكاد يقع على الأرض، لكنه اســـتجمع قواه وخرج من الغرفة مســـرعا يرتطم بجدران المدرسة. أخذت هواجس الرحمة والقلق تصطرع في داخله. "يا إلهي!.. كيف حدث ذلك؟ ماذا لو مات الولد!؟ يا رب، لقد وثق الناس بنا ومنحونا حبهم وائتمنونا على أبنائهم فلم نخيّب ظنهم. ماذا لو أصاب المسكين مكروه؟ ماذا أفعل لو أوقفوا عمل المدرسة بحجة الإهمال... يا رب احفظنا..."

أســـرع ناحية المكان الذي تجمّع فيه التلاميذ. وما إن رأوه حتى أفســـحوا له الطريق، وإذا ببَدَن صغير وقد ارتمى على الأرض دون حَراك وسط دماء تسيل من رأسه. مدّ يديه المرتعشتين ببطء، واحتضن الطفل بحنان، ورفع رأسه بعناية... فعرفه... "الحمد لله!.."

انحدرت الدموع على خدَّيه بلا إرادة منه.. شعر كأن شيئا ما يعتصر قلبه... ضمّه إلى صدره بحرقة وتَمتم بألم "ولدي!.." نعم... إنه ابنه وفلذة كبِده... جس نبضات قلبه الصغير ولكن...

في تلـــك اللَحظة كانت صبرية هانم مشـــغولة بخياطة ثوب لحفيدها المحبـــوب... لم تكن تعرف بأفول نجمه المتلألئ في سماء الغربة... كانت شاردة الذهن... وفجأة وخزت الإبرة إصبعها فصرخت بأنين صامت "آه...". ■

(*) كاتب تركي. قصة حقيقية وقعت في إحدى دول آسيا الوسطى. وهي مترجمة عن مجلة "سيزينتي" التركية بتصرف.



الاغتراب الحضاري لدى المسلم المعاصر



أديب إبراهيم الدباغ*

لا أوَدُّ أن أخدش حِسّ التفاؤل والأمل في نفوسكم الكريمة بحديثي عن غربة المسلم واغترابه الحضاري في هذا العصر العصي الذي يبدو وكأنه مدسـوس علـى الدنيا في حين غِرّة من أهلهـا، ليهدم بمعاوله كلّ منارات الهدى، ويطمس على كلِّ ما يمكن للجنس البشري أنْ يسترشد بـه من معالم الحق والعدل والخير؛ فالتفـاؤل والأمل هو ينبوع قوة المسلمين، وسرُّ اسـتعصائهم على ضربات الزمن الوجيعة. وهو النور المسـكوب من وجدان الغيب ليشـرق بسنائه فوق ليالي اليأس والحزن والألم، لذا أبادر فأقول: إنّ اغتراب المسـلم وغربته ليسـا دليلَ ضعفٍ دائما، وليسـا دليل رغبةٍ بالانكفاء والانفصام عن عالمه المحيـط به، بل هما -في كثير من الأحيان- علامة على الصحة والقوة، وآية على الائتلاف الحميم بينه وبين إيمانه وعقيدته.

فكلما زادت غربة المسلم، وعمق اغترابه، كان ذلك إشارة إلى حياة إيمانية سـليمة، إن كانت اليوم مسـتعصية على الفهم بعض الشيء، إلاّ أنّها توشـك غدًا أن تصبح الروح الذي يحيي مَواتَ الإنسان، ويوقظ قلبه وينير عقله.

والغربة في روح المسلم وعقله، إنما هي نتاج مصارعته للتمزق والانشطار بين الوجود والنفي، بين وجوده الإيماني وعدمية هذا الوجود، بين سلبيات الدنيا ولاشيئيتها وإيجابيات الآخرة ويقين حقيقتها. وهي ثمـرة ذلك القلق الممض بـين أن يكون أو ألاّ يكون، وهو -بعد ذلك- قلـق يخصب الفكر، ويغني الوجود، ويفتح منافذ الخيال والوجدان على حقيقة الإنسـان، وهو قمين بنفوس المتميزين من رجال العقيدة والإيمان.

هاجس مقيم

وتظل هذه الغربة هاجس المسلم الدائم، وقدره وقضاؤه، يلازمه ولا ينفك عنه ما دام يدرج فوق أديم هذه الأرض... صحيح أنه

يسكن الأرض ويدرج فوقها، إلاّ أنها ليست المحطّ الذي يمكن أن يحط رحاله عليها إلى الأبد، ولا المكان الذي تنتهي إليه آماله، ولا الوطن الذي يملأ عليه خياله، أو يحتوي عظمة روحه.

إنه يمكن أن يملك الأرض، وأن يعمرها، ويحكمها بالعدل، ويقيم فوقها شرع الله... غير أنها تبقى مُلك يمينه؛ يأخذها إلى الأقوم والأحسن والأفضل بينما يظلّ قلبه مغلقًا دونها، فلا يخلد إليها، ولا يطمئن لها، بل يحسُّ بالوحشة والخوف منها، لأنها موطن الفناء والموت والعدم. ففي كيانه، وفي كلّ ذرّة من دمه نزوع إلى عالم هو الوجود كله، ووطن هو الخلود كله، وأرض هي الحياة كلها، لا يتهددها موت ولا يكتنفها زوال أو عدم... إنه ذلك العالم القدسي الذي أُبعِدَ عنه أبوه آدم عليه السلام. ومحال أن تُستَنْبَتَ بذرة الموت والعدم فوق أرض الحياة والوجود، فنزل الأرض أُمَّ الموت والعدم، لأنّ شبيهَ الشيءِ منجذبٌ إليه، فصارت الأرض دار غربته، ووطن وحشته، لا يسكن إليها ولا يطمئن بها.

وقد أورث أبناءه من خاصية ذاته مرارة الغربة، ولوعة الحنين إلى الوطن الأول. فذاكرة الإنسان الباطنة وحافظة وجدانه، تخفي في تلافيفها جذور ذلك الاغتراب الآدمي، وأصول ذلك النزوع إلى عالم الأب الأول. ومما يثير الدهشة أن يغدو تَوق "آدم" عليه السلام وزوجه إلى البقاء الدائم والخلود الأبدي -وهما في دار الخلود والبقاء- المنفذ الذي نفذ منه الشيطان إليهما بوسوسته: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾(الأعراف:٢٠)، مما يدل على أنّ الآدمية مفطورة على هذا التَّوق، وأنّ في أصل خلقة كلّ آدمي نزوعًا عارمًا إلى البقاء والخلود، ففعلت وسوسته معهما فعلها، ففقدا بذلك سر الخلود، وسُلبا إكسير الحياة.

التوق إلى الخلود

إن ما يعتلج في نفوسنا من توق إلى الخلود والبقاء، ونفور من الموت والعدم، دليل على وجود البقاء والخلود خارج عالمنا -أكبر من كل دليل وأعظمه- لأن الانسان -كما هو معلوم ومشهود- لا يشتاق إلى عدم لا وجود له، ولا يرتبط معه بسبب من الأسباب. وسيظلّ القلق الحادّ يعتور "النفس الإنسانية" ويؤرّق وجودها، بسبب ذلك الإحساس المبهم بالوحشة، والشعور الغامض بالاغتراب في هذا العالم. وهو حسٌّ عميق الغور في النفوس لا يسهُل الخلاص منه أو الانفكاك عنه، لأنه يشكل جانبًا مهمًّا من جوانب الوجدان البشري. غير أن الشعور بالاغتراب الفكري والروحي وعلى الرغم مما يخلفه من آلام وأحزان، يشكل عامل تحريك لقوى النفس، وتنشيط لخلايا الفكر والروح. فالإبداعات الفكرية الإيمانية مدينة إلى هذا الشعور بالاغتراب عند المبدعين، وإحساسهم بأنهم غرباء في أوطانهم وأزمانهم بغربة ما يملكون من فكر لم تتهيأ الأوطان والأزمان بعدُ لقبوله والتواصل معه، إلاّ أنهم يمضون في أداء رسالتهم على أمل أنْ يأتي ذلك الزمان الذي يُحسِنُ الفهم عنهم والتلقي منهم.

الشتاء الحضاري

غير أنه ومنذ دخول العالم الإسلامي شتاءَه الحضاري القاسي، وعقل المسلم لم يعُد عقلاً فاعلاً؛ إنه في حالة استرخاء دائم، ولم يعد العقل المستوفز المشدود اليقظ، والمستعد دومًا لالتقاط إيماءات الكون، واستلام إشارات الطبيعة.. لم يعد عقلاً مغامرًا يستهويه المجهول، ويفتنه المستور، حتى لكأنه يخاف الحقائق ويستهولها. فيتحاشاها ويهرب منها، وبذا لم تعد حياتنا الإيمانية وحدها مهدَّدة باليبس والنضوب، بل غدا إدراكنا نفسه مهددًا بالشلل والجمود.

إن دم إسلامنا الطيب الطهور يسري في عروقنا، ولكنه دم خامل هامد، به حاجة إلى "عملية فصد" لكي يتجدد ويستعيد حيويته ونشاطه. ولن يقدم على عملية الفصد هذه إلا واحد من مفكرينا، يمتشق قلمه، ويجعل منه مشرطًا حادًّا يغوص عميقًا في عقل المسلم وروحه ليحرك سكونهما، ويستنفر همودهما، وهذه السبيل التي لا مناص منها لكي تنشط عقولنا، وتتجدد قلوبنا وأرواحنا. وهذا المفكر آتٍ لا أشك بمجيئه، لأن زلزالاً فكريًّا رهيبًا يعصف اليوم بعقول مفكري هذه الأمة، ويوشك أن ينجلي عن منجم فكري عظيم يمدُّ المسلمين بكل نفيس وجديد من الأفكار.

الدين والحضارات

فمن المعلوم أنّ "الدين" هو الذي يقود مسيرة الحضارات في فجرها الصادق، ويهيمن عليها، ويعمر ضميرها، ويرسي قواعد سلوكياتها وأخلاقياتها، حتى إذا قويت واشتدّ ساعدها وعلا ضحاها ودلفت إلى ظهيرة عمرها، جاء دور العقل لينشر سلطانه فوقها، ويستحكم فيها، ويتحكم بها، وربما صار وثنًا يتعبّدُ له الناس من دون الله تعالى.

وقد فجّر الغرب اليوم حسّيّات الإنسان إلى آخر مداها

وطاقاتها، وفجّر مع ذلك حسّ الأرض والســـماء، وأثار خفايا الأرض بترابهـــا ومائها وهوائها، فإذا بهـــا تتزلزل وتلقي بأثقالها وأســـرارها بين يديه ليبتني من عناصرها مدنية الحسّ المفتقرة في بعض جوانبها إلى دفءِ الروح، وشفافية الدين والإيمان.

حضارة الإسلام

أما حضارة الإســـلام فهي وحدة واحدة، تبدأ بالعقيدة وتنتهي إليها. فالروح والعقل والحسُّ يتداخل بعضها في بعض، وتمشي جميعها جنبًا إلى جنب في جميع مراحل تطورها. فالسمع والبصر والفؤاد والعقل، كلُّ هؤلاء موضع الخطاب القرآني، وهي مناط التكليف في الدنيا، والمســـؤولية في الآخرة. فحضارة هذا شأنها وإن غابت اليوم عن حسّ المسلم، ولم يعد يتلمس وجودها في واقع حياته، إلاّ أنها حاضرة قائمة في عقله وروحه، شـــاخصة في خياله وذاكرتـــه، لم تقفر سماء ذاته مـــن خفقات نجومها، وومضات كواكبهـــا. وعلى الرغم من أنه يعاني اليتم، وكوالح الاغتراب، إلا أنه ســـيبقى متشـــبثًا بها، متعلقًا بأمراسها. ولن يغريـــه أحد بالتنكر لها، والانســـلاخ عنها، لأنها تمتزج بأجزاء نفســـه، وتجري في مجاري روحه.

قوة الفكر

إن قـــوة الفكر الذي تحتاجه هذه الحضـــارة لتنهض من جديد، قمين بعقول عظماء الرجال ممن عانوا الاغتراب الفكري، ووقفوا على مشـــارف الخطر المحدق بها من خلال البنى الفكرية التقليدية المكـــرورة، والتي فقدت وهجها وحـــرارة تأثيرها. فظهور هذا الفكـــر بين ظهرانَينا هو منعطف تاريخي مهم في حياة الإســـلام والمسلمين، والسعي إليه فرضُ عين على كل صاحب قلم يحرص على وجودها كما يحرص على ماء عينيه. وإذا كنّا نصرُّ على أن يكون للفكر الإســـلامي مكان مرموق في عالم اليوم، فلا بُدّ أن ينجم من بين فحول مفكرينا فكر قوي جديد يتســـم بالأصالة والعنفوان، ليغزوَ كيان المســـلم المعاصر وهو على أبواب العقود المتبقية من القرن الخامس عشر الهجري.

إنّ التجديد الذي تحدث عنه الأثر النبوي الشـــريف والقائل بأنّ الله تعالى يبعث على رأس كل مئة سنة مَن يجدد هذا الدين، هو أحد مفاخر ديننا، بل أعظم مفاخره. ففيه إشـــارة إلى ذلك الالتحام الأبدي بين ديننا وصيرورتَي الزمان والمكان، وهو ســـرٌّ خلود هذا الدين وبقائه ما بقي الزمان والمكان.

خصائص هذا الفكر

وليس من همي هنا أن أســـتطرد في وصف هذا الفكر وما ينبغي أن يكـــون عليه، إلاّ أنني لا أرى ما يمنع من الإشـــارة إلى بعض ما نريده منه، لاســـيما وإنه قد وَمَضَت منه ومضاتٌ عند البعض من مفكري الإسلام وعلمائه المحدثين؛ فنريده كالعاصفة المنطلقة من ســـجنها يوقظ هاجع الأفكار في جميـــع الأذهان، ويعصف بقبور العقول ومدافن النفوس لتقذف بأموات أفكارها وظلمات أرواحها بعيدًا عنها... ونرجـــوه فكرًا كونيًّا شموليًّا يربط ربطا محكمًـــا بين حقائق الدنيا وحقائـــق الآخرة، ويصل ما بين قلب الكون وقلب الإنسان... ونتمناه حارًّا دافقا يهدر بالأفكار كما تهدر شـــلاّلات الطبيعة، ليس فيه برودة "الأكاديمية" وجفافها، ولا ضبابية الإنشـــائية وتهويماتها، وإنما هو مزيج من فيض الروح ودفقه، ووقدة القلـــب وضرامه، وحرارة العقـــل وجلاله. إنه باختصار فكر قرآني يمنح الإنسان القدرة على فضّ أختام العالم، وحلّ لُغز الوجود، وتمزيق ما تحجبتْ به الحياة من قُمُط النواميس والسنن وقوانين الأسباب والمسببات؛ فيأخذ بيده مخترقًا مفازات هـــذه الحجب ليوقفه بين يدي خالقه وبارئه، تاركًا العوالم كلها وراء ظهره في عبودية خالصة مخلصة لرب العالمين.

محمد ﷺ الهادي والدليل

والله ﷻ قد دلّ على وجـــوده بجموع هائلة من الآيات الآفاقية والأنفسية. إلاّ أنّ أعظم آياته، وأكثرها ظهورًا، وأبهرها إعجازًا بعد القرآن الكريم، إنما هو ســـيدنا محمـــد ﷺ، بصفاء جوهره، وكـــريم عنصره، وعظم خلقه. فهو المعـــنى الجليل الذي انتُدِبَت البشـــرية إلى فهمه، وهو القلم الذي علّمَ الإنسانَ ما لم يعلم من معاني الإيمـــان والتوحيد، ووضع النقـــاط المضيئة فوق حروف الوجود لكـــي يمكن قراءته والتعرّف على معناه ومغزاه. فما من قلم في يد مســـلم إلاّ وهو يســـتمدّ فكره من هـــذا النبي الأمي عليه أفضل الصلاة والســـلام، ويتعلم منه، ويسترشـــد به، لأنه مرآة القرآن الكبرى، يعكـــس على العالم أفكاره وآياته ومعانيه عبرَ حركة الزمن المتجدد. وهو ﷺ بين الأنبياء والرســـل أعظم مجدديهم، وأكثرهم نجاحًا فيما انتدبوا له من مهام؛ فقد جَدّد ما رثَّ من تعاليمهم، وخَلِق من أفكارهم، وحُرِّف من رسالاتهم، وهو الذي أحيا عقيدة التوحيد الخالص وبعثها من رمسها، وأناط بها خلاص الجنس البشري من الشقاء الأبدي.

فالاسلام –قرآنًا وسنّة– وإن كان قد نسخ شرائع ما قبله، إلاّ أنه –بحد ذاته– تجديد لأصول هذه الشـــرائع وأساسياتها التي هي محور كل دين إلهي. فالتجديد إذن قد بدأ في تاريخنا بنبيّنا محمد ﷺ ولا ينبغي أن يتوقف في أمته إلى أن يرث الله الأرض ومَن عليها.

الجامدون الخائفون

وكل ما هـــو غير مطروق، ولا مألوف من الأشـــياء والأفكار الجديدة يتوجس منه الجامدون خيفة، وكلُّ مجدّد غريبٌ في قومه ووطنه، منكر بينهم لا يكادون يفقهون عنه أو يسمعون منه. وقد عاش رســـولنا الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم غريبًا في قومه بمكة ثلاث عشرة ســـنة، لأنه جاءهم بما لم يألفوا أو يعرفوا من الدين والإيمان. ومن هنا بات المسلم رهين غربتين، غربة مكانية حسّـــية ورثها عن جَده آدم عليه السلام، وغربة فكرية إيمانية ينـــزع فيه إليها عِرْقٌ روحي تمتدُّ جذوره عميقًا إلى غربة رســـوله المكية الأولى، وبين طوايا هاتين الغربتين في وجدان المســـلم، تتشكل بصمت قواه الروحية، وتســـتكمل شـــخصيته عناصر تفردها وتميزها، ليصبح من بعدُ نوعًا إنســـانيًا متفردًا قبالة الكم البشري العادي. وهـــو وإن كان غريبًا في نظر هذا الكم ولغزًا مبهمًا لا يعرف كيف يفسره ويفهمه، غير أنه مع ذلك يحسُّ بأنه يضرب بعِـــرقٍ في كل نفسٍ، ويَمُتُّ بصلة إلى كل قلب، وربما رأى فيه تكفيرًا واعتذارًا عن تخلفه وعجزه عن التفرد والتميز.

فهو غريب لكنه مستطاب الغربة، بعيد لكنه أقرب ما يكون من الأرواح الحبيسة المعذّبة في سجون أجسامها، وأسمع ما يكون إلى أنين الإنسان وصراخه المفجع في دياجير الضلال، وأندى ما يكون على النفوس العطشى في بَلاَقِع الهوى الرهيب، وهو حاسّة الأمة السادسة التي تتلمس من خلالها دربها إلى الصراط المستقيم، وهـــو بُعدُها الرابع الذي تنفذ من خلاله إلى أغوار روحها الموار بخـــوالج الإيمان الدفينة، وهو عقلها الـــذي يفكر لها إذا ما اعتلّ عقلها، وداءت نفســـها. كلُّ ذلك في إطـــار من جمال الروح، وجلال الفكر، وهيبة النبل والطهر، حتى لكأنه بصفاته هذه أثقل من أن تتحمله طينة الأرض، وأوســـع من أن تحتويه دنيا الناس، وأشدّ تماسكا وقوة من أن يجرفه زَبدُ سيل العالم. ■



(*) كاتب وأديب / العراق.



جمالية التفكر الإيماني

أ.د. فريد الأنصاري*

من أســرار هذا الدين ولطائفه أن باب عقيدته هو التفكر. قال عز وجل في مخاطبة المنكرين عبر رسوله الكريم: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُـمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا للهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾(سبأ:٤٦). آية في غاية الجمال والسمو. وإني أشهد أني مذ ذقتها وجدت أن بها بحرا من الأسرار التربوية لا يعلم مداه إلا الله. وإن لها لذوقا وجدانيا خاصا.

التفكر

أرأيت كيف أن الله تعالى يخاطب هــؤلاء، بالقيام له، والتفرغ لشأنه، قبل الإيمان به؟ وذلك حتى يمكنهم من الوصول إلى حقيقة الإسلام، هذا الدين الذي هم له منكرون. وقد شرط الله عليهم شرطا في كيفية القيام له: وهو الخلوة به وحده سبحانه. والعدد الوارد في الآية: ﴿مَثْنَى وَفُــرَادَى﴾ على حقيقته، إذ ليس هناك في الســياق ما يصرفه عن هذه الحقيقة. لكن لماذا التنصيص على الفردانيــة، أو الثنائية، بالضبط؟ لماذا كان ذلك شــرطا لتوقيع "التفكر"؟ إنه أمر عجيب.

العقــل آلة تلتقط الحقائق، وتعقلها، ولكنها لا تتخذ القرار. وإنما الــذي يتخذ القرار هو القلب بمعناه القرآني الخاص: ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُــرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾(محمـد:٢٤)، ومنه قوله تعالى: ﴿لَهُــمْ قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ بِهَا﴾(الأعــراف:١٧٩). فإذا كان القلب محجوبا بحجب المــادة والكثرة عجز عن الوصول إلى ما يعرضه عليه العقل من صور معقولات. فلا يتخذ القرار المناسب في الوقت المناسب. ومن هنا كان جوهر التفكر في القرآن قلبيا. ولذلك فقد وجدناه ينتج عنه شعور قلبي هو الخوف نظرا لرهبة القلب ممــا يحلله له العقل ويعرضه عليــه من صور. وذلك نحو

ما في الآية السابقة من سورة سبأ، إذ قال سبحانه في تتمتها: ﴿مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾(سبأ:٤٦)، وأظهر منه آية التفكر في سورة آل عمران: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾(آل عمران:١٩١). إنه شعور الوجدان بهول الحقيقة وعظمتها، ولذلك قلت "إن التفكر فعل وجداني في العمق".

وهو لذلك لا يقع من الناس إلا آحادا، وإن حكي عنهم بضمير الجماعة، كما في الآية الأخيرة، فإنما المقصود أنه يحصل ذلك منهم فرادى لا مجتمعين، كما يدل عليه أول الآية: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾(آل عمران:١٩١). فهذه صور تحيل على الناس وهم في شؤونهم الخاصة، بين منازلهم وأفرشتهم ونومهم وقيامهم. وأغلب ذلك كله أحوال فردية. والآية الأولى ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا للهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾(سبأ:٤٦) نص في فردانية فعل التفكر. أما الثنائية "مثنى" فهي ملحقة من حيث الفائدة بالفردانية. والمثنى في العربية ملحق بالمفرد. وإنما يبدأ الجمع في اللغة بالثلاثة. ثم إن التفكر بين اثنين "نجوى"، وهي أشبه ما تكون بتحديث الفرد نفسه. أما فائدة ذلك فهي أن التفرغ لله عز وجل في خلوة، لا يكدر صفوها عليك أحد من الخلق، يتيح للقلب أن يتفاعل في صفاء مع معطيات الفكر، ويتواجد متلذذا بمواجيد الشعور بمعية الله، وحقائق الكون الكبرى. ومثل ذلك لا يحصل في لغط النقاش الجماعي، وضوضاء الجدل المتعدد.

رفيق النجوى

نعم رفيق النجوى، وهو الثاني (مَثْنَى)، يكون معك على موجدة واحدة في التأمل، وتبادل المشاعر والمواجيد. تماما كما كان النبي ﷺ يخلو لربه فردا، أو مع صاحبه أبي بكر الصديق رضي الله عنه أحيانا، أو غيره من الصحابة الكرام. فإذن تكون أبواب القلب أكثر انفتاحا لتقبل ما يلقى عليها من واردات الحب، والشوق، والمعرفة الربانية.

ومما يزيد هذه الآية دقة فيما نحن فيه التعبير بـ"ثم" التي تفيد الترتيب. فكأنه تعالى جعل شكل التفكر ﴿مَثْنَى وَفُرَادَى﴾ هو الكفيل وحده بنجاح عملية التفكر، ولذلك قال سبحانه: ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾.

﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ﴾ فعل واحد لا ثاني له، كفيل بأن يقود الإنسان إلى الحقيقة: التفكر. هل خلوتَ بنفسك يوما؟ أو ناجيت رفيقا لك في أمر الكون والحياة والمصير؟ عندما يمتد الفكر سائحا في أقاصي الكون يضل ويتيه. وأنَّى له أن يهتدي في دروب ومسالك ينتهي الخيال ولا تنتهي منافذها؟! إذن يرجع الفكر منكسرا عاجزا. وإن ذلك لعمري هو الإسلام؛ الخضوع للعظمة المطلقة فوق الزمان والمكان، والاعتراف بالقصور عن الإحاطة؛ ولا بأي طرف من أطرافها. ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ۞ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾(الملك:٣-٤). الرجوع إلى الصف الآدمي للانضمام إلى سلك "العادة الطبيعية"، رجوع في العمق إلى مقام الخدمة والعبودية. موجدة ليست في حاجة -حينئذ- إلا إلى الإفصاح والتعبير: "لا إله إلا الله".

وهنا يكمل جمال الدين، الدفء الحاصل عند الشعور بالانسجام مع سائر الخلق السيار، كل في سربه وفلكه: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾(الإسراء:٤٤). هذا التوحيد الكوني في التعبير، بل هذا التناسق الكلي في نفث المواجيد، عبر شتى ألوان العبادة، له ذوق "الأنس" الذي يملأ القلب نشاطا وحبا للحياة الممتدة طولا وعرضا.

التنافس في طريق المحبة

التنافس هنا إذن هو في طريق "المحبة". الكل يحب، والمحبوب واحد. تلك هي القضية. إذن أيّنا يبذل أكثر؟ وأيّنا يشكر أكثر؟ فهذا مجال الإفصاح عن مواجيد الذلة لملك القلوب ومالكها. وكلما كان الحب أصدق كان أكثر إذلالا لصاحبه. ولكنها ذلة اللذة والمتعة العليا، والشعور بالراحة في سبيل رضى المحبوب، وينطلق السباق... وتلك لذة أخرى، لها قصة أخرى.

الله! هذا المعنى العظيم الذي ننطلق منه لنُقِرَّ أنه "لا إله إلا هو". تدخل إلى ملكوته من باب "التفكر" بوجدان المحبة الكبرى. ولكن كيف؟

لطالما كنت أقرأ عن رواد الحب الإلهي، فكنت أتعجب كيف يجدون هذه الموجدة، بهذا الشوق كله!؟ فتفكرت دهرا، فإذا الباب ينفتح بمفتاح "الربوبية": الله، هذا السيد العظيم هو الخالق لكل شيء من الجلائل والدقائق. وما أنت أيها العبد في ملك الله العظيم، الممتد بلا حدود، إلا ذرة من البلايين التي لا يحصرها

خيال، من الذرات السائرة في متاهة الكون الفسيح. ألم يكن ممكنا في قدر الله وقدرته تعالى ألا تكون أصلا؟ إنها نعمة الخلق إذن، فأعظم بها من نعمة لا تحصى حمدًا ولا تحاط شكرا، ولو عشت أعمار الخلائق جميعا حامدا وشاكرا. ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا﴾(الإنسان:١). لمسة "الحياة" هي النعمة الكبرى بعد الخلق.. ألم يكن ممكنا أن تكون جمادا؟ ثم إنها حياة الروح أكبر هبة إلهية للإنسان.

تأملات تملأ القلب حَيرة وعجبا. أن يكون بين الناس في ظل هذه الحقائق الرهيبة منكرون... عجبًا.. عجبا! ولا يملك المتفكر في آلاء الله ونعمائه العظمى إلا العجب.

أن تتفكر في جمال الإحسان الرباني، يعني أن تقع أسير أنواره، وجلال كماله، مؤمنا خاشعا متبتلا. ذلك هو سر المحبة، وهو المعراج السري لقافلة المحبين السائرين إلى منازل الحبيب. قال بديع الزمان النورسي رحمه الله: "ما دام ذلك الحكيم المطلق سلطانًا ذا جلال بشهادة جميع إجراءاته الحكيمة، وبما يظهره من آثار جليلة.. وربًّا رحيمًا واسع الرحمة بما يُبديه من آلاء وإحسانات.. وصانعًا بديعًا يحب صنعته كثيرًا بما يعرضه من مصنوعات بديعة.. وخالقًا حكيمًا يريد إثارة إعجاب ذوي الشعور وجلب استحسانهم بما ينشره من تزيينات جميلة وصنائع رائعة... فإنه يُفهَم مما أبدعه من جمال يأخذ بالألباب في خلق العالم أنه يريد إعلام ذوي الشعور من مخلوقاته ما المقصود من هذه التزيينات؟ ومن أين تأتي المخلوقات وإلى أين المصير؟"[١] فهو إذن "يعرّف نفسَه ويودّدها، بمخلوقاته -غير المحدودة- ذات الزينة والجمال.. ويُوجب الشكر والحمد له، بنعمه -التي لا تحصى- ذات اللذة والنفاسة.. ويشوّق الخلق إلى العبادة نحو ربوبيته؛ بعبوديةٍ تتسم بالحب والامتنان، والشكر إزاء هذه التربية، والإعاشة العامة، ذات الشفقة والحماية".[٢]

فعلا... إن الذي يشعر بالنعمة المسداة إليه يجد نفسه مطوقا بحقها في الشكر، ولكنها نعمة أكبر بكثير من أن تحصى أو تحصر. فكيف تشكر إذن؟ هنا يمتلك القلبَ الشعورُ بالعجز والذلة والخضوع التام، وتلك هي "لا إله إلا الله".

"الله".. هذا الاسم الجميل كلمة تدل على الحياة العليا والنعمة الكبرى.. منه سبحانه نستمد الكينونة والحياة. وعطاؤه تعالى لا ينقطع أبدا، ولا يحصى عددا. أن تملأ قلبك بمعرفة الله، يعني أنك تملؤه بالحياة. أن تملأ قلبك بمعرفة الله، يعني أنك تملؤه بالحب. وأن تعبر عن ذلك كله، يعني أن تقول: "لا إله إلا الله"، أي لا مرغوب ولا مرهوب إلا الله، ولا محبوب إلا الله، ولا يملك عليك مجامع القلب والوجدان إلا الله.. هذا السيد الجميل، والملك الجليل، والرب العظيم الرحيم.

إن العبد المسكون بحقيقة "لا إله إلا الله" لا يملك إلا أن يتدفق منجرفا إلى الله.. تماما كما تتدفق الأنهار سارية وساربة إلى مالكها.. فأنى له إذن أن يتخلف إذا سمع داعي الله ينادي أنْ "حي على الصلاة"، أو "حي على الفلاح"؟!

طُيُوبُ الْحُبِّ إنْ مَسَّتْ فُؤادًا
جَرِيحَ الْوجْدِ كَانَ لَهَا نُشُوبُ!
وَهَلْ فِي الْعَاشِقِينَ الْغُرِّ غُصْنٌ
يُنَادِيهِ الْحَبِيبُ وَلاَ يُجِيبُ؟

يتخلف؟ كيف؟ والمسلم، إنما هو ذلك العبد الذي يحمل جمرة الشوق إلى الله.. يُسبغ الوضوء على المكاره، وينقل الخطى إلى المساجد يسري في الظُّلَم، ويسرب في الهجير، متقلبا بين حَرٍّ وقَرٍّ، ويجاهد في سبيل الله.. ينثر روحه أزهارا على الثرى، طمعا في رضى المحبوب، الذي تعلقت به القلوب. والمسلم هو ذلك العبد الذي فاض قلبه بحب الله؛ فلا تجد من سلوكه إلا مسكا، ولا ترى من خطوته إلا كياسة وفطنة، ولا يلقاك إلا بالكلمة الطيبة والسريرة الحسنة.

الإسلام، هذا الجمال الإلهي العالي، دين ليس كأي دين. لكن... لو كان له ذوّاق... ذلك هو "الإسلام" دين المحبة. وذلك هو المسلم السالك مَدارِجَ المحبين. وأنَّى لمن خفق قلبه بلمسة الحب أن يكون شريرا؟ الحب، هذا الشعور الفياض بالجمال، إذا خالط قلبا أحاله جداول من الإيمان واليقين. وامرؤ كان ذلك شأنَه لا يتصور فيه أن يؤذي أحدا أبدا، لأنه لا يملك من المواجيد في قلبه إلا الحب. وكل إناء يرشح بما فيه. إنه لا يملك إلا أن يملأ المكان بمواجيد المحبة، ورياحين الشوق في سيره الوجودي إلى الله. ■

(*) جامعة مولاي إسماعيل، ورئيس المجلس العلمي بمكناس / المغرب.

الهوامش

[١] الكلمات لسعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، ص ٦٧٧.
[٢] المكتوبات لسعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، ص ٢٨٥.

مفهوم العولمة وتحليلها
في ضوء الفلسفة الأخلاقية لرسائل النور



أ.د. عبد العزيز برغوث*

إن البشرية بأكملها تعيش اليوم أوضاعا محرجة ومنذرة بكثير من المخاطر، ومؤذنة بمستقبل غامض في كثير من جوانبه إن لم يُتدارك الأمر بسرعة وحكمة. وهذه المخاطر المحدقة بالإنسانية جميعا، وهذا المستقبل الغامض غير نابع في أصله من عدم وجود المنظور الكوني القادر على توجيه خطى الإنسان، ولكنه أساسا متأتّ من بعض التحكمات الإنسانية المتعسفة التي تحاول فرض مقولاتها وأيديولوجياتها على باقي الإنسانية، وسائر الثقافات البشرية وخاصة المغلوبة على أمرها مثل عالمنا الإسلامي المعاصر. وقد عبر الإمام النورسي عن هذا المنطق مشيرا إلى مخاطر المدنية الغربية غير المتوازنة بقوله: "إن دهاءك المظلم قد قلب نهار البشرية ليلا، ذلك الليل البهيم بالجور المظلم، ثم تريدين أن تنوري ذلك الظلام المخيف بمصابيح كاذبة مؤقتة... هذه المصابيح لا تبتسم لوجه الإنسان، بل تستهزئ به، وتستخف من ضحكاته التي يطلقها ببلاهة وهو متمرغ في أوحال أوضاع مؤلمة مُبكية"[1]. فهذا التعامل غير المتوازن مع الإنسانية ومع البشرية عموما أدى إلى فوضى كبيرة انعكست على حياتنا المعاصرة وعلى واقعنا وحاضرنا وستنعكس على مستقبلنا.

تضارب الرؤى حول العولمة

والعولمة، هذه الظاهرة الجديدة القديمة تحاول اليوم أن تضع أسئلة محرجة ومهمة وخطيرة على مصير الحضارة الإنسانية عامة ومصير حضارة الإسلام بصورة خاصة. ومما لا شك فيه أن المقولات حول العولمة متعددة، ومتنوعة، ومتغايرة، ومتمايزة بصورة كبيرة. فمن الموالين والذائدين عنها إلى الرافضين والمعارضين لها، ومن الإيجابيين حولها إلى السلبيين، ومن الموضوعيين في تصورها إلى الذاتيين في معالجتها، ومن المركزين على جوانبها المتعددة إلى الحاصرين لها في جانب واحد، ومن الناهبين والمستفيدين من خيرها والتاركين لشرها إلى الغافلين والتائهين بين شرها وخيرها، ومن أهل الخبرة فيها إلى المتحدثين فيها بغير علم ولا وعي ولا منهج ولا نظام، ومن العارفين بمفهومها وحقائقها وآلياتها إلى الخالطين لها بين المفاهيم.

وقد يقال ما علاقة الأستاذ النورسي ورسائل النور بموضوع

العولمة؟ فلا النورسي ولا رسائل النور تحدثت عن موضوع العولمة؟ وما عساه أن يقوله في موضوع جديد لم يُعهد بهذا المصطلح والمعنى في زمانه؟

ولكن قبل القيام بهذا التحليل ينبغي أن نجيب عن سؤال مبدئي أولي وهو "ما هو مفهوم العولمة في الأدبيات القائمة حاليا وما مخاطرها على العالم الإسلامي؟" حتى يتسنى لنا تمييز موقف ورأي ومقولة رسائل النور في الموضوع. فيتحصل من هذا الكلام أن نركز في موضوعات ثلاث هي:

أولا: مفهوم العولمة ومخاطرها على العالم الإسلامي المعاصر؟

ثانيا: كيف ينبغي أن نفهم العولمة في رسائل النور؟

ثالثا: الرد النوري على مخاطر العولمة والقيمة الحضارية للنسق الأخلاقي في رسائل النور.

الدور المستقبلي لرسائل النور

ومما تجدر الإشارة إليه قبل البدء بتحليل هذه النقاط الثلاثة فكرة مهمة جدا أوردها الإمام النورسي في رسائل النور عندما كان يتحدث عن القيم الحضارية والتاريخية والكونية العامة لرسائل النور، حيث يبدو وكأنه يتوقع دورا حضاريا ضخما وفعالا لرسائل النور في مستقبل الأيام، ويعتقد أن رسائل النور ستتحول إلى بؤرة تركيز عالمي تجذب العلماء والمفكرين والحكماء في زمن تعيش فيه الإنسانية أخطر مراحل تطورها وأعقد مشكلاتها. فيقول الإمام النورسي رحمه الله: "إن أجزاء رسائل النور قد حلّت أكثر من مائة من أسرار الدين والشريعة والقرآن الكريم، ووضحتها وكشفتها وألجمت أعتى المعاندين الملحدين وأفحمتهم، وأثبتت بوضوح كوضوح الشمس ما كان يظن بعيدًا عن العقل من حقائق القرآن كحقائق المعراج النبوي والحشر الجسماني.. أثبتتها لأشد المعاندين والمتمردين من الفلاسفة والزنادقة حتى أدخلت بعضهم إلى حظيرة الإيمان. فرسائل هذا شأنها لا بد أن العالم -وما حوله- بأجمعه سيكون ذا علاقة بها، ولا جرم أنها حقيقة قرآنية تشغل هذا العصر والمستقبل، وتأخذ جل اهتمامه، وأنها سيف ماسيّ بتّار في قبضة أهل الإيمان".[2]

إن هذا الكلام يبين لنا بما لا يدع مجالا للشك الدور الحاسم الذي ستؤديه رسائل النور في النقاش العالمي الذي يدور حول حاضر البشرية ومستقبلها، ويبين لنا كيف أن هذه الرسائل لها استيعاب خاص لواقعنا الحضاري المركب والمعقد. وسنحاول إبراز بعض ما تستطيع أن تقدمه الرسائل لإنقاذ إيمان الأمة في عصر العولمة التي يعبر عنها النورسي بقوله: "أما الآن فقد تطورت وسائل النقل إلى درجة كبيرة بحيث أصبح العالم كالمدينة الواحدة، وغدا أهله في مداولتهم الأمور كأنهم في مجلس واحد."[3]

أولا: مفهوم العولمة ومخاطرها على العالم الإسلامي

ينبغي لنا أولا وقبل كل شيء أن نحدد ولو بصورة عامة مفهوم العولمة، لكي نتبين حقيقتها وأبعادها ومخاطرها على الفرد والمجتمع والحضارة والثقافة الإسلامية والإنسانية بصورة عامة. ومما ينبغي التنبيه عليه هو أن تعاريف العولمة متعددة جدا، ومتنوعة بصورة تكاد لا تحصر. ويمكن أن تعرف العولمة بصورة عامة على أنها تلك الظاهرة التي برزت مع الأفكار الأساسية التي يبشر بها النظام العالمي الليبرالي الجديد، وتعني رفع الحواجز الجغرافية والثقافية والاجتماعية، وانفتاح الثقافات والحضارات الإنسانية على بعضها البعض بسبب تأثير الثورة التقنية والتكنولوجية والاتصالية والمعلوماتية؛ بحيث تزداد كثافة وسرعة وحجم الاتصالات والتعاملات والنشاطات الإنسانية بصورة تؤدي إلى عولمة الواقع البشري، وجعل البشرية كلها تعيش في ظروف نفسية وثقافية واجتماعية وحضارية توحد مصيرها وتعَولم مشكلاتها. ففي ظل هذا التعريف العام للعولمة ذات الأبعاد السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والبيئية والجغرافية والعمرانية يصبح المجتمع الإنساني وحدة واحدة أو كما يسمونه بـ"قرية الكرة الأرضية".

فإذا كان هذا التحديد للعولمة سليما بصورة عامة، فإنه لا يستطيع أن يفسر لنا بعض الأبعاد والآفاق التوسعية الفوضوية الخطيرة التي كثيرا ما لا تأخذ بعين الاعتبار مصالح وهموم الإنسان غير الغربي. وهذا الأمر يجعلنا نزيد في توضيح بعد مهم من أبعاد العولمة، وهو الذي يمكن نعته بالبعد الأيديولوجي الاستراتيجي التوسعي الذي يخدم مصالح دعاة العولمة بصورة خاصة.

فإذا ما أخذنا هذه التحديدات بعين الاعتبار فإننا نستطيع أن نرى الصورة الحقيقية للعولمة، ونستطيع أن نميز بين ما هو لا إنساني وسلبي فيها، وبين ما هو إنساني وإيجابي. ولكن يبقى الأمر الهام والذي ينبغي أن نؤكد عليه جيدا وهو أن العولمة في عمقها المعرفي والتاريخي والسوسيولوجي والأخلاقي والمادي هي بلا شك فعلٌ حضاري ثقافي غربي يحاول إعادة صياغة الكيان الحضاري للبشرية جميعا وصبغه بالصبغة الغربية، وجعل النموذج الحضاري الثقافي الاجتماعي الغربي قانونا يحكم حياة الإنسان، ويصوغ له أقداره ومصائره وتوجهاته، ويعيد ترتيب نظام القيم والعلاقات والمعرفة والسلوك على وفق الرؤية الكونية الغربية.

ثانيا: مدخل النورسي لفهم العولمة وإدراك مخاطرها

من الأهمية أن نكتشف مفهوم العولمة وحقيقتها ليس عن طريق البحث في صفحات رسائل النور عن هذه اللفظة أو المصطلح، ولكن عبر التحليل للوحدة المنهجية والعضوية للنص النوري في كليته. وعلى هذا الأساس سنحاول كشف أهم مدخل من مداخل فهم العولمة وأبعادها وأسبابها وآثارها ومخاطرها على الإنسان المعاصر عامة. ويمكن أن نختصر هذا المدخل فيما يسميه عالِمنا الجليل النورسي "المعنى الحرفيّ والمعنى الاسميّ". وبعد التعرف على هذين المفهومين يمكن تقديم صورة للعولمة كما تعبر عنها رسائل النور.

أ- المعنى الحرفيّ والمعنى الاسميّ في فهم العولمة

يتحدث الأستاذ النورسي رحمه الله عن مسألة المعنى الاسميّ والمعنى الحرفي ويجعلهما من أهم الأفكار في رسائل النور. ونحن نستطيع أن نستخدم مفهومَي المعنى الاسمي والحرفي للدلالة على أهم وأخطر بعد من أبعاد العولمة باعتبارها منتوجا إنسانيا نابعا عن تطور الذهنية الإنسانية وتوجهها وجهة معينة أوصلتها إلى الوضع الحالي من التأزم والفوضى والاختلال العام. وقبل أن نربط بين مفهوم المعنى الحرفي والاسمي ومفهوم العولمة نحاول ذكر تعريف النورسي لهما.

فالمعنى الحرفي يعني النظر إلى الكون والأسباب، والمعجزات، والحوادث، والوقائع، والسنن، والآيات الإلهية الآفاقية والأنفسية "والموجودات التي -كل منها حرف ذو مغزى- بالمعنى الحرفي، أي من حيث دلالاتها على الصانع. فيقول'ما أحسن خلقه'، 'ما أعظم دلالته' على جمال المبدع. وهكذا يكشف أمام الأنظار الجمال الحقيقي للكائنات".(٤)

فالمعنى الحرفي إذن دال على غيره وليس على ذاته، وإنما ذاته ونفسه ما هي إلا مرآة عاكسة لشيء أعظم من النفس وأعظم من الوجود وأعظم من الدنيا "أي أنّ 'أنا' لا يحمل في ذاته معنى، بل يدل على معنى في غيره كالمرآة العاكسة، والوحدة القياسية، وآلة الانكشاف".(٥) فالإنسان والمجتمع الذي ينظر إلى الدنيا وإلى الحياة وإلى الحضارة بالمعنى الحرفي فإنه سيرى الأشياء والأمور على حقيقتها، وبالتالي تنسجم خطاه مع مراد الله، وتتناغم أعماله وأقواله مع سنن الله وقوانينه، لأنه ينظر إلى الوجود على أنه دليل على خالقه عز وجل.

وأما إذا نظرنا إلى الأمور وعالجنا المشكلات الإنسانية بمنظور ونسق المعنى الاسمي، فإننا نكون أمام وضع مختلف تماما عن وضع المعنى الحرفي. ففي المعنى الاسمي نؤلّه الأسباب، ونخلد إلى الدنيا، ونتثاقل إلى الأرض، ونعتبر أن الحياة الدنيا هي خلاصة كل شيء وأن التطور المادي والترقي العمراني هو غاية الوجود كله. وبهذا ننظر إلى أنفسنا (أنا) على أنها كل شيء ومصدر كل خير، ونجعل من العقل إلهًا نحكّمه ومن الفلسفة معارف عليا كلية توصلنا إلى كل ما نريد معرفته. فلا نرى وراء العقل ووراء الفلسفة شيئا مفيدا.

فإذا ما نظر الإنسان إلى الحياة والكون والوجود بالمعنى الاسمي، فإن نظرته وأفقه ينحصر في ذاته، ويدور حول أَنَاه مهما حققت من الرقي المادي، ومهما تفجرت أمامه من عيون الحضارة وخيراتها، وإنه يبقى دائما مسلوب الوعي الصحيح، فاقد الرشاد والهداية غارقا في الملذات والشهوات لا يكاد يرى وراءها شيئا. وبهذه الكيفية يجعل المعنى الاسميُّ الإنسانَ تائها في نفسه لا يكاد يدرك حقيقته وحقيقة رسالته الوجودية.

ب- العولمة كنتاج للمعنى الاسمي

فإذا ما أخذنا بعين الاعتبار فكرة المعنى الحرفي والمعنى الاسمي وأردنا تطبيقها على مسألة العولمة، فإننا سندرك حقيقتها وجوهرها بصورة جلية. فالعولمة في جوانبها السلبية ما هي إلا تجلٍّ لاستحكام المعنى الاسمي والفلسفة الاسمية والرؤية الكونية الاسمية في الثقافة، والنفسية، والعقلية الغربية التي تقود الحضارة المعاصرة. فعملية الاستبدال للمعنى الحرفي بالمعنى الاسمي في الواقع الإنساني هو الذي أدّى إلى نشوء هذه الثقافة والنفسية والشخصية التي تحمل راية العولمة وتتبنى مشروعها ونهجها في الهيمنة على البشرية. فعندما تبنّت المدنية الغربية هذا المنظور تشكلت ثقافتها، واصطبغت نفسيتها بعدة خصائص جعلت منها منبتا ومنشأً خصبا للفوضى والاختلال والظلم الذي تعانيه البشرية اليوم من جراء أفكار العولمة ومخاطرها.

يقول الأستاذ النورسي واصفا حقيقة المنظور الاسمي الذي تبنته الحضارة الغربية المعاصرة: "إن أسس المدنية الحاضرة سلبية، وهي أسس خمسة، تدور عليها رحاها. فنقطة استنادها: القوة بدل الحق، وشأن القوة الاعتداء والتجاوز والتعرض، ومن هذا تنشأ الخيانة. هدفها وقصدها: منفعة خسيسة بدل الفضيلة، وشأن المنفعة: التزاحم والتخاصم، ومن هذا تنشأ الجناية. دستورها في الحياة: الجدال والخصام بدل التعاون، وشأن الخصام: التنازع والتدافع، ومن هذا تنشأ السفالة. رابطتها الأساس بين الناس: العنصرية التي تنمو على حساب غيرها، وتتقوى بابتلاع الآخرين وشأن

القومية السلبية والعنصرية: التصادم المريع، وهو المشاهد، ومن هذا ينشأ الدمار والهلاك. وخامستها: هي أن خدمتها الجذابة، تشجيع الأهواء والنوازع، وتذليل العقبات أمامها، وإشباع الشهوات والرغبات. وشأن الأهواء والنوازع دائما: مسخ الإنسان، وتغيير سيرته، فتتغير بدورها الإنسانية وتمسخ مسخا معنويا".[٦]

فبهذا الوصف الدقيق للرؤية الكونية الغربية وخصائصها الثقافية نجد الأستاذ النورسي قد حدد المدخل الأصيل والصحيح كذلك لإدراك حقيقة العولمة باعتبارها منتوجا لهذه الثقافة والرؤية والحضارة. ومن هذه التحديدات يقدم لنا النورسي صورة عميقة ومعبرة عن حقيقة العولمة وطبيعة العقل الذي أنتجها ونوعية الثقافة التي تقف وراءها، كما يقدم لنا أمثلة واقعية لما تفرزه هذه الظاهرة وما تتركه في واقع الناس. يقول الأستاذ النورسي: "إن المدنية الغربية الحاضرة لم تلق السمع أبدا إلى الأديان السماوية، لذا أوقعت البشرية في فقر مدقع، وضاعفت من حاجاتها ومتطلباتها، وهي تتمادى في تهييج نار الإسراف والحرص والطمع عندها بعد أن قوضت أساس الاقتصاد والقناعة، وفتحت أمامها سبل الظلم وارتكاب المحرمات".[٧]

فما لم ندرك مسألة العولمة في إطار ما أسماه الأستاذ النورسي بالمعنى الاسمي فإننا سنبقى دائما ننظر إلى المسألة بصورة سطحية لا نرى من خلالها عمق الأزمة وعمق المشكلة الخطيرة التي تواجهها البشرية. فكل المآسي المشار إليها ما هي إلا نتاج مباشر للشخصية والعقلية التي تتبنى النظرة الاسمية للحياة والدنيا والعالم والحضارة. وفي هذا السياق نجد النورسي ينعى على هذا التوجه ويتوقع نهاياته وفساده لأنه لا ينسجم مع سنن الله ولا مع نواميس الكون. ومن الأهمية بمكان أن نؤكد أنّ تحليل النورسي لأزمة الحضارة الإنسانية والمدنية الغربية بصورة خاصة إنما تتم ضمن ما أسماه بالنظرة الاسمية أو المعنى الاسمي للوجود. فبهذا العمق والنظرة إذن تقدم لنا رسائل النور المدخل الأصيل والصحيح ليس فقط لفهم العولمة ولكن كذلك لفهم مشكلات الإنسانية عموما.

وبعد أن بيّنّا بصورة مختصرة مدخل رسائل النور في النظر إلى مسألة العولمة، وأوضحنا ما لفكرة المعنى الاسمي والحرفي من فائدة في إدراك حقيقة المشكلة الإنسانية والأزمة الحضارية التي تواجهها البشرية في عصر العولمة يبقى لنا أن نبين ما هو المدخل الأساسي لعلاج هذه الأزمة والرد على تحدي العولمة الذي يكاد يطبق على البشرية جميعا بتياره المتعاظم.

والذي يقرأ جيدا رسائل النور ويتعمق فيها ويكتشف منهجها العام يستطيع أن يدرك أن أي مدخل لمواجهة مسألة العولمة أو غيرها من المشكلات التي تواجه الإنسانية ينبغي أن يدور حول "المسألة الأخلاقية". فسؤال الأخلاق في نسق رسائل النور ووجهتها العامة هو المدخل الأساسي لمعالجة أدواء وأسقام الإنسان المعاصر. ولكن حين نتحدث عن المسألة الأخلاقية عند النورسي فإننا لا نتحدث عنها وفق منطق الفلسفة الوضعية أو المادية أو الطبيعية. ولكن نتحدث عن الأخلاق وفق ما أسماه النورسي بالمعنى الحرفي. وحين ننظر إلى المسألة الأخلاقية على وفق المعنى الحرفي فإننا نجدها وبدون منازع هي المدخل الصحيح لمعالجة المشكلات الإنسانية.

وفيما يأتي بيان لمفهوم ودور المسألة الأخلاقية في مواجهة تحدي العولمة والرد على تيارها السلبي المتعاظم الذي حوّل حياة الملايين إلى يأس، وأصبح الكثير من الناس لا يشعرون بالأمان أمام هذه الأوضاع المتردية. وقد عبر النورسي عن مثل هذه النتيجة الأخلاقية المؤسفة بقوله: "فلا جرم أننا نعاني نتيجة هذا الخطأ الفادح غلظة القلب وقسوته، وانقباض الروح وظلمتها، المؤدية بمجموعه إلى تعكير صفو الأخلاق، وتلوث نقاوة الروح.. وفوق هذا تمضي حياتنا رتيبة مملة يائسة خاوية المعنى".[٨]

ثالثا: القيمة الحضارية للنسق الأخلاقي في رسائل النور

لا شك أن الذي يطلع على رسائل النور بقلب مخلص وعقل منفتح وبصيرة نافذة سيصل إلى حقيقة أساسية وجوهرية هي أن رسائل النور في مجملها وكليتها وشموليتها وجامعيتها "درس أخلاقي إيماني كوني استخلافي إنساني عميق". وعندما يلج هذا القارئ المخلص والواعي مسالك رسائل النور، ومداخلها النورانية القرآنية المعنوية سيتأكد تماما أن "المسألة الأخلاقية" تمثل المحور المركزي والمركز المحوري للدرس النوري وخطابه بصورة عامة.

وليس من قبيل المصادفة أو الرجم بالغيب أو الارتجال الفوضوي أن تتموقع المسألة الأخلاقية في هذا الموضع الخطير والمتميز ضمن اهتمامات الخطاب النوري، ولكن طبيعة الدرس النوري، وصلته الوثيقة بالقرآن الكريم، وبالنموذج النبوي الأخلاقي العظيم قد فرضا على رسائل النور أن تتجه هذه الوجهة الأخلاقية، وأن ترفع بقوة ثقل المسألة الأخلاقية مبينة دورها في البناء الحضاري للبشرية، وفي الصيرورة العامة للحضارة الإنسانية.

فقد أكدت لنا الخبرة الإنسانية، والمعارف الحضارية البشرية أن المسألة الأخلاقية هي أس أساسات الأفعال الحضارية والتاريخية

المتوازنة في المسيرة الإنسانية، التي كان قادتها الحقيقيون هم الأنبياء والمرسلون من أول نبي عليه الصلاة والسلام إلى آخر الأنبياء محمد ﷺ الذي كانت أعظم معجزاته المشهودة على المستوى التاريخي والحضاري والاجتماعي هو أخلاقه التي جعلت منه رحمة لعالمين. والذين يسيرون في مسار النبوة وأخلاقها، ويتبنون المعنى الحرفي في حياتهم إنما يرون أن للحياة غايات أخلاقية عظيمة، وأن الأخلاق هي أساس الحياة الصالحة، أو كما يقول النورسي: "بينما الذين هم في مسار النبوة، فقد حكموا حكما ملؤه العبودية لله وحده، وقضوا أن الغاية القصوى للإنسانية والوظيفة الأساسية للبشرية هي التخلق بالأخلاق الإلهية، أي التحلي بالسجايا السامية والخصال الحميدة التي يأمر بها الله سبحانه".[9]

فإذن ليس من العبث أن تشغل المسألة الأخلاقية هذا الحيز والموقع في الدرس النوري. فالقيمة الخلقية، والبناء الأخلاقي، والتوجيه الأخلاقي أصبح مع رسائل النور لازمة جوهرية من لوازم الإنقاذ الحضاري لإيمان البشرية، ولخدمة الإيمان والدين والحقيقة القرآنية.

ومن هذا المنطلق نلفي رسائل النور ترسم لنا صورة أخاذة وعميقة وصادقة عن الحقيقة الأخلاقية للعالم الإسلامي، فتبرز لنا البعد الإيماني الإحساني للأخلاق الإسلامية ليس باعتبارها أخلاقا نظرية فلسفية مادية وضعية، ولكنها أخلاق إيمانية شرعية عملية اجتماعية مؤثرة في الصلة بين العبد وربه، وبين العبد وأخيه، وبين العبد والكون المحيط به.

ورسائل النور حين ترسم لنا الصورة الآخذة للجانب الأخلاقي في حياة الأمة والعالم الإسلامي لا تنزع منزعا فلسفيا نظريا، ولكنها تتوجه نحو القلب والبصيرة والوعي والسلوك والنفس لتحرك الوجدان كله والوعي كله لتلقي الحقيقة القرآنية الإيمانية النورانية كما هي في الخطاب القرآني. فالأمة الإسلامية الحقة أمة أخلاقية، لأنها تتبنى النظرة الحرفية في الحياة والاعتقاد والفكر والسلوك والعمل. وعلى هذا الأساس فإن الحضارة والمدنية التي تشكلها الشريعة المحمدية الحرفية هي مدنية متوازنة ومتناغمة مع طبائع الفطرة ومنسجمة مع سنن التاريخ.

وفي هذا السياق يصف لنا النورسي طبيعة المدنية التي تنشأ عن النظرة الحرفية الأخلاقية فيقول: "أما المدنية التي تتضمنها الشريعة الأحمدية وتأمر بها، فإن نقطة استنادها: الحق بدلا من القوة، والحق شأنه: العدالة والتوازن. وهدفها: الفضيلة بدلا من المنفعة، والفضيلة شأنها: المودة والتجاذب. وجهة الوحدة فيها: الرابطة الدينية والوطنية والصنفية بدلا من العنصرية والقومية، وهذه الرابطة شأنها: الأخوة المخلصة والمسالمة الجادة والدفاع فقط عند الاعتداء الخارجي. ودستورها في الحياة: التعاون بدلا من الجدال والصراع، والتعاون شأنه: الاتحاد والتساند. وتضع الهدى بدلا من الهوى، والهدى شأنه: رفع الإنسان روحيا إلى مراقي الكمالات".[10]

والأمة الإسلامية والعالم الإسلامي في عمقه الأخلاقي ينبغي أن يكون هو التجسيد العملي لهذا الدرس الأخلاقي الذي لخصته رسائل النور تلخيصا عميقا مستنبطا من الدرس الأخلاقي القرآني والدرس الأخلاقي التطبيقي النبوي؛ إذ تبين لنا رسائل النور أن المسألة الأخلاقية لا تأخذ حيزها وموقعها وموضعها ضمن الحياة الإنسانية إلا إذا عشناها وطبقناها وتذوقنا آثارها وثمراتها، حين تتحول الأخلاق إلى الطاقة والقوة التي تبني الإنسان والمجتمع والأمة والإنسانية التي تتصف بصفتي الإحسان والاستقامة باعتبارهما من أهم معايير الصلاح الإنساني.

فنحن إذن لا نستطيع أن نفهم ونعالج المسألة الأخلاقية ضمن نسق رسائل النور إلا إذا خلّصنا مناهج دراسة الأخلاق من الأطروحات الفلسفية والوضعية والمادية وربطناها بما يسميه الأستاذ النورسي بالمنظور الحرفي التوحيدي؛ إذ بهذا المنظور تصبح المسألة الأخلاقية جوهرية لارتباطها بالإيمان والتوحيد والشريعة والاستخلاف والكون والإنسان من جهة، وتجسدها في شخص النبي عليه الصلاة والسلام وظهورها في عمق معانيها في حياته وأعماله وأفعاله وأقواله ومنهجه وسنته وسائر أحواله.

وبهذا ينقذ المنهج النوري قضية دراسة الأخلاق من التجريد والفوضى المعرفية إلى العمل الصالح والارتقاء بالوعي والعقل إلى حقائق الإيمان وتجلياتها النفسية والكونية. وبهذا كذلك يقدم لنا النورسي الأخلاق باعتبارها الحل السليم والعميق لما تعانيه الإنسانية من مشكلات. ■

(*) الجامعة الإسلامية العالمية / ماليزيا.

الهوامش

(١) اللمعات لسعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، ص ١٨١.
(٢) الملاحق لسعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي،ص ٢٤٨.
(٣) صيقل الإسلام لسعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، ص ٥٧.
(٤) الكلمات لسعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، ص ١٤٣.
(٥) الكلمات لسعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، ص ٦٣٧.
(٦) الكلمات لسعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، ص ٨٥٥.
(٧) الملاحق لسعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، ص ٣٨٠.
(٨) الشعاعات لسعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، ص ٢٤٢.
(٩) الكلمات لسعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، ص ٦٢٤.
(١٠) المكتوبات لسعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، ص ٦٠٦.

شيخ علماء الإسلام
محمد زاهد الكوثري

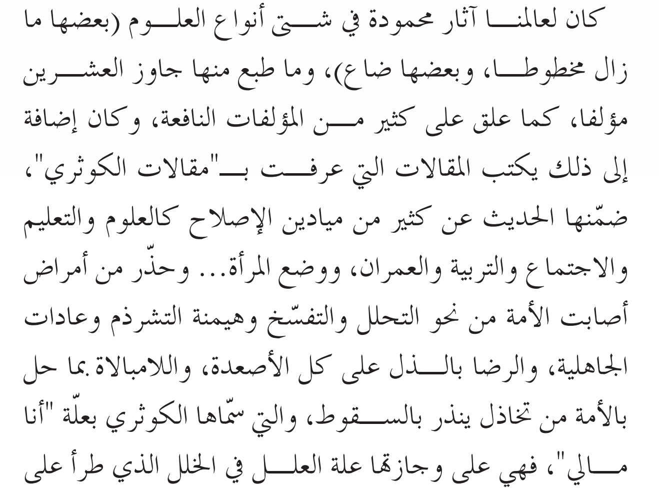
أ.د. عمار جيدل*



نبذة عن حياته

يعد محمد زاهد بن حسن الحلمي الكوثري أبرز علماء الأحناف في العصر الحديث، وقد ولد يوم الثلاثاء ٢٧ أو ٢٨ من شوال ١٢٩٦هـ الموافق لسنة ١٨٧٨م. تلقى علوم العربية والشريعة في وطنه تركيا. فبعد التتلمذ لوالده انتقل إلى "دُوزْجه" متعلما ثم الآستانة. كما استفاد من علماء زمانه في مختلف فنون المعرفة، وظل مواظبا على التحصيل رغم الرتب العلمية التي نالها؛ فأخذ كما هي عادة علماء عصره الإجازات عن كثير من أعلام زمانه. وبعد أن ضاق المكان عن الاحتمال انتقل -مستصحبا الرغبة في التحصيل والإصلاح- في رحلات متتالية إلى الإسكندرية ثم القاهرة ومنها إلى الشام، ومنها إلى بيروت ثم دمشق، ثم استقر به المقام بمصر التي وصلها عبر فلسطين، وقد لاقى في تلك الرحلة كثيرا من العناء.

ظهرت عليه علامات النبوغ منذ المراحل الأولى للتحصيل؛ فقد اشتغل بعد نيل الإجازة العلمية (العالمية) سنة ١٩٠٧م بالتدريس في جامع الفاتح وعمره أقلّ من الثلاثين عاما، واستمر على هذا العمل مدرسا في مدرسة المتخصصين بدار الخلافة ثم بجامعة إسطنبول، وجمع إليها التدريس في المعاهد والمدارس المسائية. أخذ عنه كثير من فضلاء زمانه، من أمثال أحمد خيري (ت: ١٩٦٧م) وحسام القدسي (ت: ١٩٧٩م)، وعبد الفتاح أبو غدة العالم الزاهد (ت: ١٩٩٩م)... وغيرهم كثير.



كان لعالمنا آثار محمودة في شتى أنواع العلوم (بعضها ما زال مخطوطا، وبعضها ضاع)، وما طبع منها جاوز العشرين مؤلفا، كما علق على كثير من المؤلفات النافعة، وكان إضافة إلى ذلك يكتب المقالات التي عرفت بـ"مقالات الكوثري"، ضمّنها الحديث عن كثير من ميادين الإصلاح كالعلوم والتعليم والاجتماع والتربية والعمران، ووضع المرأة... وحذّر من أمراض أصابت الأمة من نحو التحلل والتفسّخ وهيمنة التشرذم وعادات الجاهلية، والرضا بالذل على كل الأصعدة، واللامبالاة بما حل بالأمة من تخاذل ينذر بالسقوط، والتي سمّاها الكوثري بعلّة "أنا مالي"، فهي على وجازتها علة العلل في الخلل الذي طرأ على شؤون الأمة في كل زمن.

يفرض وضع هذا شأنه -برأي الكوثري- العملَ على إصلاح الأفراد بالتربية الدينية الراشدة، لأن الفرد هو النواة الأولى للأسرة، ولأن الأسرة هي الخلية الأولى لإصلاح المجتمع.. ويفرض كذلك إنجازَ دراسات جادة شاملة عن أمراض المجتمع بغرض تشكيل جماعات متصاعدة تقوم بواجب إرشاد الأسر والمجتمعات والبلدان والدول. ويقتضي نجاح هذا العمل جهودا جماعية في إطار مؤتمرات تعقد لهذه الغاية، مع السعي المستمر نحو تعارف الشعوب الإسلامية لتتمكن الجامعة من تقويم العود أو رد التعدي على الأمة بالتشاور والتآزر، وإصلاح ما يحتاج إلى الإصلاح منها بعناية فائقة تركّز على التضامن الاجتماعي الذي يرمي إليه وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الشرع الإسلامي، ثم العمل على إصلاح عالم الأفكار ببعث الأبعاد الاجتماعية والسياسية والفكرية للعقيدة الإسلامية. ورأس الإصلاح في عالم الأفكار بعد التوحيد، إبطال فلسفة "أنا مالي"

التي تعبّر عن اللامبالاة وتعطيل وظائف التوحيد. فيعتقد المسلم حين يرفض التسليم بهذه الفكرة أنه من الواجب عليه أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه مصداقا لقول النبي ﷺ "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه".

وقد عُرف إضافة إلى ما سلف بصفات أخلاقية قلّ نظيرها، فقد عرف بالزهد والتعفف والصبر وحسن المعاملة وعدم قبول أجر العلم. وحليت تلك الصفات الأخلاقية بصفات علمية سهلت له مأمورية التعليم والتربية؛ فقد كان محيطا بعلوم الشريعة ووسائلها، متمكنا من علوم الآلة وخاصة اللغات العربية والفارسية والتركية والجركسية، إضافة إلى قوة ذاكرة يسّرت له ضبط الأسماء مع حفظها، وبلغ فيها درجة سامية جعلته مضرب الأمثال في الحفظ والدقة.

تمكنه من العلوم

القراءة المتأنية لمجموع ما صنّفه الرجل من مؤلفات ومقالات وتعليقات وتحقيقات تدل على تمكّنه من علوم العربية أولا والشريعة ثانيا وفنون الحكمة ثالثا واللغات الشرقية رابعا.. فقد كان فارسا لا يبارى في تلك المعارف والفنون.

يبيّن التحليل الموضوعي لمجموع مضامين مؤلفاته أننا أمام طود شامخ، أخذ من الأوّلين قوّة الذاكرة وسعة الاطلاع وطول النفَس والصبر على التحصيل والتحليل والتحقيق مع جرأة في الحق يغبط عليها.

كتب وصنّف في جلّ علوم الشريعة والعربية، فمع الفقهاء كان فقيها متضلّعا، ومع الأصوليين كان نحريرا يحرر المسائل بدقّة متناهية، ومع المتكلمين كان متكلّما نظّارا، ومع المؤرخين محققا مدققا، أما في الحديث وعلومه فهو فارس مجالاته وشيخ تخصصاته من غير منازع... وحيد عصره وفريد زمانه نسيج وحده كما قال أحد تلاميذه. وتتبيّن تلك الحقيقة بعرض يسير لأسماء الأعلام الذين ناقشهم؛ فقد تتبّع أقوال الفقهاء والمتكلمين والمحدّثين والمفسرين والمؤرخين والفلاسفة والمستشرقين...

مكانته العلمية

ناقش أقوال المالكية والشافعية والحنابلة فانتصر لهم أحيانا وورفض أقوالهم أحيانا أخرى واضعا نصب عينيه في كل ذلك الانتصار للإمام أبي حنيفة، ووفق ذلك الجهد ناقش أقوال المحدّثين كابن خزَيمة والدارمي وابن الصلاح والخطيب البغدادي وابن حزم وابن تيمية وابن القيّم وخلقا كثيرًا.

وناقش في المفسرين ابن جرير الطبري والزمخشري والرازي، كما ناقش المتكلمين وأتباع الفرق الأخرى؛ فحلل وناقش آراء الأشاعرة وأعلام الشيعة كالنوبختي، وجاوز ذلك إلى رد مفتريات المستشرقين والمتغربين من أبناء أمّتنا الإسلامية.

وعلَمٌ بهذه السعة في التأليف لا يعدم نقّادا ومناوئين. والموازنة بين أقوال المناوئين والمناصرين يحتاج كتابا موسعا، لا يسع بيان أطرافه مقال، لهذا سنقف في هذه العجالة مع من ناصر آراءه الفقهية والأصولية والحديثة والعقدية.

فقد قال عنه محمد أبو زهرة (ت: ١٩٧٤): "لا أعرف عالما مات فخلا مكانه في هذه السنين كما خلا مكان الإمام الكوثري، لأنه بقية السلف الصالح الذين لم يجعلوا العلم مرتزقا ولا سلّما لغاية"..

وورد عن أبي زهرة في وصفه ما يبيّن معرفته بالرجال ومنازلهم، اخترنا في هذا المقام نتفا من تلك الخلال التي وصفه بها: "إنه تحقق فيه القول المأثور "العلماء ورثة الأنبياء"، وما كان يرى تلك الوراثة شرفا يفتخر به ويتسلط به على الناس، بل كان يراه جهادا في إعلان الإسلام وبيان حقائقه وإزالة الأوهام التي لحقت جوهره". يؤكد هذا المعنى، قوله أيضا: "لم يكن الكوثري من المنتحلين لمذهب جديد أو داعيا إلى مذهب لم يُسبق إليه، لهذا كان ينفر ممّن يسميهم العامة وأشباه المثقفين بسمة التجديد، ومع ذلك فقد كان من المجددين بالمعنى الحقيقي للتجديد والذي هو إعادة رونق الدين وجماله وإزالة ما علق به من الأوهام. إنه لمن التجديد أن تحيا السنة وتموت البدعة ويقوم بين الناس عمود الدين، لقد كان عالما حقا. (...) وقد عرف العلماء علمه وقليل منهم من أدرك جهاده. ولقد عرفته سنين قبل أن ألقاه، عرفته في كتاباته التي يشرق فيها نور الحق، وعرفته في تعليقاته على المخطوطات التي قام على نشرها. وما كان -والله- عجبي من المخطوط بقدر إعجابي بتعليق من علّق عليه. (...) إنه لم يرض بالدنية في دينه، ولا يأخذ من يذل الإسلام وأهله بهوادة، ولا يجعل لغير الله والحق عنده إرادة،

وإنه لا يعيش في أرض لا يستطيع فيها أن ينطق بالحق ولا تتعالى فيها كلمة الإسلام".

لهذا يتباهى الإمام أبو زهرة بذكر الكوثري له في بعض مؤلفاته، حيث يقول معلّقا على ذكره له: "وما كنت أحسب أن لي في نفس ذلك العالم الجليل مثل ما له في نفسي، حتى قرأت كتابه "حسن التقاضي في سيرة الإمام أبي يوسف القاضي" فوجدته رضي الله عنه قد خصّني عند الكلام على الحيل المنسوبة لأبي يوسف بكلمة خير. وأشهد أني سمعت ثناء من كبراء وعلماء فما اعتززت بثناء كما اعتززت بثناء ذلك الشيخ الجليل، لأنه وسام علمي ممن يملك إعطاء الوسام العلمي".

هذه شهادة ثقة يحق لنا أن نباهي بها ونقدمها بل ونجعلها العمدة في معرفة منزلة الشيخ محمد زاهد الكوثري، إنها شهادة عالم متبحر شهد له الداني والقاصي بسعة الاطلاع ورحابة الصدر والبعد عن التعصّب المقيت.

ويرى الأستاذ محمد بن يوسف البنوري (كان أستاذا للحديث بدار العلوم بباكستان) أنه يحق في الكوثري ما ذكره مسروق بإسناد صحيح في حق عبد الله بن مسعود ﷺ حيث قال: "لقد جالست أصحاب محمد ﷺ فوجدتهم كالإخاذ (الغدير)، فالإخاذ يروي الرجل، والإخاذ يروي الرجلين، والإخاذ يروي العشرة، والإخاذ لو نزل به أهل الأرض لأصدرهم، فوجدت عبد الله بن مسعود ﷺ من ذلك الإخاذ". إنما تصدق هذه الكلمة في محقق العصر، الجهبذ الناقد البحاثة الخبير. فكان رجلا تتجلى فيه هذه المزية بأجلى منظرها، رجل جمع بين غاية سعة العلم والاستبحار المدهش ودقة النظر، والحافظة الخارقة، والاستحضار المحيّر، والجمع بين علوم الرواية على اختلاف فروعها وشعبها، وعلوم الدراية على تفنن مراميها. لقد كان الكوثري عالما محيطا بنوادر المخطوطات في أقطار الأرض وخزانات العالم، مع الغيرة على حفظ سياج الدين، أو إبداء وجه الحق إلى الأمة ناصع الجبين".

وورد عنه في سياق بيان منزلته قوله: "إن القوم لم يقدّروا الكوثري بما يستحقه من تقدير وإجلال. ذلك المحقق، وذلك البحاثة الناقد، وذلك الخلق الجميل... العالم المتثبّت المحتاط في النقل، المتيقّظ لكل كلام، المستغني عن الاستدلال بالأمور الذوقية أو الوجدانية في المحاججة، متصلّب المعتقد، منتصر إلى الحق غاية الانتصار، حارس متيقظ، منافح عن الحنفية ضد كل حملة شنعاء".



محمد زاهد الكوثري وتلميذه عبد الفتاح أبو غدة

كما أيّده وناصره ناشر علمه وجامع مقالاته "أحمد خيري"، وفي ذلك قال عنه: "كان ذا ذاكرة فذة ولاسيما في حفظ الأسماء؛ فكان إذا سمع شيئا أو رأى أحدا مرة واحدة ذكره ولو بعد سنوات. وهيأ له ذلك مع اطلاعه على المخطوطات النادرة في الآستانة ومصر والشام إلى أن أصبح حجة لا يبارى في علم الرجال. وجمع إلى براعته في الحديث ورجاله مهارة فائقة في علم الكلام وتنزيه الله ﷻ. كما كان أستاذ العصر في علمي الأصول والفقه، وكان على عبقريته المدهشة يحب أن يتعقّبه العلماء".

ويقرب من تلك المقالات ما نقلت عن العلامة يوسف الدجوي والشيخ عبد الرحمن خليفة وعزت العطار الحسيني وشيخ الأزهر مصطفى عبد الرازق ومحمد بخيت المطيعي وعبد الجليل عيسى وحسام القدسي ومحمد زكي مجاهد وسلامة القضاعي ونجم الدين الكردي وغيرهم كثير.

ويقول عنه سلامة القضاعي: "العلامة المحقق والمحدث الفقيه المحقق الأستاذ الأجل الشيخ زاهد الكوثري شفي به صدر السنة ونصر به الحق الذي عليه الأمة".

أما نجم الدين الكردي فيقول عنه: "المحقق الفهامة البارع، أعلى الله درجته في المهديين نظرا لما متّع به من تعليقات نفيسة على كتاب البيهقي "الأسماء والصفات"، تعليقات بما فيه من رجال الأسانيد وما لا بد منه".

وبالإضافة إلى كل ما سلف فقد اهتم به الباحثون في الدراسات الإسلامية والفلسفية. وقد وصفه الأستاذ الدكتور علي سامي النشار بأوصاف لم يصف بها غيره من أقرانه، فقال: "عالمنا الكبير المعاصر"، "عالم الإسلام الكبير"، "العلامة"، وذهب إلى ما يقرب من هذا محمود محمد عويس في كتابه "ابن تيمية ليس سلفيا".

وهكذا يتبيّن لنا أنّ الكوثري محدّث فقيه أصولي متكلم ومفسر

وأديب لا يشــق له غبار، وسجى تلك العلوم بسجايا وأخلاق عالية اعتبر بموجبها وبحق بقية السلف الصالح.

تفسيره لإشكاليات العالم الإسلامي

يرى الشــيخ الكوثــري أن أزمة عالمنا الإســلامي في العصر الحديث تتلخّص في الخلل الطارئ على عرض المســألة الفقهية والعقدية أكثر مما ترجع إلى أسباب أخرى.

يتصوّر الشــيخ أن من أهم أسباب بعد المسلمين عن عقائدهم في العصــر الحديث ظهور بدعة التجســيم. وقد ظهر الاحتفال بهذا الاتجاه في العصــر الحديث بطبع مؤلفات بعيدة عن العقيدة الإسلامية الصافية وفق تصوره، وبهذا الصدد حمل على طبع كثير من الكتب وكل ما من شــأنه الانتصــار إلى ذلك الاتجاه على حساب الاتجاهات الغالبة في البيئة الإسلامية منذ أمد بعيد.

ويرى أن الخلل الطارئ في الفقه سببه اللامذهبية التي ستؤول إن تمادى بهــا الزمن إلى اللادينية وفق رأيه. فقد شــقّ عليه أن يرى التطاول على العلماء الأعلام من فقهاء ومحدّثين ومفسّرين وغيرهم... لهذا أفرغ وســعه من أجل المرافعــة عنهم ومدافعة المتطاولين عليهم.

أمــا الخلل الطارئ على التعليم فســببه الابتعــاد عن مناهج المتقدمين في التمحيص والتثبّت مما ســبب فقدان ملكة البحث العلمي الجاد لدى الناشئة. أما الفساد الجديد في السياسة فأرجعه إلى إبعاد الإسلام عن ميدان الحكم وتعويضه بالنماذج الغربية في السياســة والحكم، مما سبّب للمسلمين غربة في بلدانهم، وأرجع فســاد وضع المرأة إلى هيمنة الفكرة الغربية التي يراد تجسيدها في المجتمع وقضية المرأة على الخصوص؛ وإذا تمّ لهم ذلك سيعمدون إلى تغيير كل ما يحمل بذرة الانتماء إلى هذه الأمة، فتتغيّر العمارة وشكل المدينة والعلاقات الاجتماعية.

تشــخيص الكوثري للأزمة صحيح في مجمله؛ فالأزمة ثقافية بالدرجة الأولى، ولعل من بين التيارات المساهمة في تأزيم الوضع أتباع الاتجاهات الظاهرية في العصر الحديث. فقد كانت بسبب تصرفاتها عاملة على تكريس الإقصاء المتشــرّع بين المسلمين، لا لشيء سوى الاقتناع بصحة رأي وبطلان ما سواه. وقد ولّدت هذه القناعات فكرا لا يقبل الحوار، فكرا إطلاقيًّا اســتبداديا لا يقبل الأخذ والرد. والفكر الاستبدادي سواء كان دينيا أو لادينيا -كمــا هو معلوم- فكر يعمل على اغتيال الفكرة المخالفة بكل الوسائل المشروعة شرعا أو قانونا. فإذا أعيته الوسائل المشروعة ركب غير المشــروعة للأسف الشــديد، وأول مراحله الإقناع بالضغط الأدبي والمالي والســلطاني. وإذا عجزت تلك الوسائل انتقل إلى ما هو أشــنع. وقد وصل ببعض المتبنّين لهذا الفكر أن أصبحــوا كالمجانين لا همّ لهم غــير إذلال المخالفين. وما ذلك حسب تقديرنا إلا بســبب اختصار الإسلام والفكر في مسائل ظاهرية لا صلة لها بالقلب. ولهذا فالمسألة تربوية بالدرجة الأولى مبناها وأساسها ثقافي طبعا. لهذا لا بد من بذل المجهود من أجل إصلاح ولائنا لله تعالى في إطار البعد الإنســاني في تصرفاتنا المبني أساسا على بعث الروح في الالتزام بأحكام الشريعة.

ولقد غلب على عمل الشــيخ وجهــوده العمل الفدائي أكثر من العمل المؤسساتي، بل يكاد يغيب هذا النمط من التفكير من خلال ما لمســناه من جهود الرجل. لهذا كانت جهوده تنبيهية أكثر مما هي تأسيسية طبعا في إطارها الكلي لا في إطارها الجزئي، وهو المسلك الذي يختاره جل الفدائيين في الميدان الفكري.

ومن ثم فإننا في حاجة إلى استثمار توجيهاته في ميدان إصلاح التعليم والجو المحيط به، كما أننا في حاجة إلى النسج على منواله في التربية الروحية الراشدة من أجل نفي النفي وإقصاء الإقصاء؛ تربية ننمّيها ونغذيها ببعث الروح في التزاماتنا الشرعية المؤسسة للهمّ الحضاري في أنفسنا ومجتمعنا في إطار السؤال الوظيفي الذي يؤرق كل مفكر رســالي جاد يهمــه أمر أمته، ويتمنى أن تخرج في غدها القريب مــن التخلّف إلى التقدم، ومن التبعية إلى قيادة العالم، نحو الإنسانية التي أراد الإسلام تكريسها في العلاقات بين الدول والشعوب والمجتمعات والأفراد.

توفي رحمه الله تعالى بتاريــخ ١٩ من ذي القعدة ١٣٧١هــ الموافق ١٥ أغسطس ١٩٥٢عن خمس وسبعين سنة، وأمّ صلاة الجنازة الشــيخ عبد الجليل عيسى شيخ اللغة العربية، ودفن قرب قبر أبي العباس الطوسي في قرافة الشافعي.

هذا هو الرجل الذي فقده الإسلام وخسره الأحناف ورزئ فيه العلم وثكلته المروءة واســتوحش لغيابه الزهد وشغر مكانه بمصر رضي الله عنه وأرضاه وأعلى في جنان الخلد منازله ومثواه. ■

(*) كلية العلوم الإسلامية، جامعة الجزائر / الجزائر.



إبداعات الفنان المسلم في الأشكال الزخرفية

أ.د. بركات محمد مراد*

المنمنمات هي صور إيضاحية لتزيين الكتب ذات الأهمية، وكثيرا ما تحدد معاني الموضوعات الواردة في الكتاب، وهو فن أبدع الفنان المسلم وأظهر براعته الإبداعية في دمجه بين الخط والصورة في علاقة تبعث شعورا سارا بالمتعة تجاه "المصوَّر" و"المجرَّد" في آن معا.

بين المصوَّر والمجرَّد

وفي عصرنا الحاضر لا يخلو كتاب يدرس في الكليات العلمية من الرسوم العلمية التوضيحية لتبسيط العلم وشرحه للطلاب. ومن المدهش حقا أن يكون المسلمون أول من ابتدع فن الرسوم التوضيحية في التاريخ. وقد نقلته أوربا عنهم في حضارتها المعاصرة، فهذا الفن لم يكن معروفا عند الإغريق، وفي كتب الطب الإسلامي وفي المخطوطات القديمة نجد الكثير من الرسوم التي تبين لطالب العلم مهمة القضية التي تشرح له.

وهذه الرسوم تشمل كل ذي روح من إنسان أو حيوان أو طيور؛ فهناك رسوم تظهر الطبيب والمريض وغرفة الفحص الطبي، وطريقة الكشف على المرضى أو ما يسمى بالفحص السريري الذي ابتدعه الأطباء المسلمون وعلموا أوربا فيه أحدث الطرق لاكتشاف المرض ومعرفة أحوال المريض. أيضا هناك صور لعلم جبر العظام والخطوات التي يتبعها الطبيب لعلاج الكسور والخلع وغيرها. وصور أخرى لعلم الكيّ وأخرى لجراحة العيون وجراحة الدوالي، بل وأيضا صور لخطوات الولادة العسرة والجراحة القيصرية. وبعض هذه المخطوطات يعود إلى القرن الثالث والرابع الهجري، وهي عصور ازدهار العلوم الإسلامية، مما يدل على أن المسلمين بعد أن بعدوا عن عصر الجاهلية الذي كانت "الصورة" فيه للعبادة والشرك بالله.. فقد انطلقوا يستفيدون من فنون النحت والتصوير لتطوير حضارتهم العلمية.

أشهر المنمنمات

ومن أشهر المنمنمات القديمة، رسومات "الواسطي" على مقامات الحريري؛ حيث تظهر تلك الرسومات التعديل الذاتي الذي قام به الفنّان المسلم على الأصل البيزنطي لهذا الفن، إذ ابتعد عن رسم

الهالات المقدسة للأشخاص، وتحولت إلى حواف ملونة. وكذلك اهتمامه بالتفاصيل المميزة لكل شخصية مرسومة من حيث الحركة والإيماءة، بالإضافة إلى أن اختيار الواسطي للألوان واستخدامه لها استخداما ملائما من حيث كونها قيمة شكلية في ذاتها مما دعا المستشرق "بابا دوبلو" أن يقول: "ليس من قبيل المبالغة القول أن كل مصوري الإسلام كانوا فائقي البراعة في استخدام الألوان".

وقد أتقن يحيى بن محمود الواسطي رسوم الجموع في مخطوطته، كما تمكن من التعبير عن خلجات النفوس، وأن يكون واقعيا في تمثيله للمناظر. وقد رسم الواسطي مقامات الحريري (٦٣٤هـ/١٢٣٧م)، وتُعرف هذه النسخة باسم "مقامات شيفر" وهي محفوظة بالمكتبة الأهلية بباريس. كذلك نرى نزوعا نحو المنظور وإن كان غير تام، وأيضا اهتماما بعناصر الصورة من حيث حجم الأشخاص وتعبيراتهم المختلفة على وجوههم وحركاتهم مما يعلي من شأن الصورة في تدرجها في سلّم القيم واحتوائها على أكبر قدر من القيم، أي الانتقال من القيم التشكيلية إلى الاهتمام بالقيم التمثيلية والروحية.

وقد وصلنا العديد من المخطوطات الإسلامية لموضوعات أدبية وأسطورية أو علمية وألبومات شخصية كلها كانت تعكس في مجال التصوير والزخرفة مدارس فنّية ازدهرت في العصور الإسلامية المتتالية. ويتّضح في معظمها محاولات جادة للمصور لإبهار المشاهد من خلال تكوينات لا علاقة لها بالواقع من حيث الجمع بين الليل والنهار في الصورة الواحدة، أو الجمع بين الداخل والخارج، أو التعبير المتأنق عن العمارة الإسلامية في التصاوير من خلال رسم دقائق الزخارف أو التعبير عن قوة الحاكم أو نبله وثرائه في صور.

الفنّان والأشكال الزخرفية الظريفة

إن المنمنمات (Miniature) كتصوير عربي وإسلامي استعارت تكوينها من الأشكال الزخرفية والخطية؛ فاللّولب الذي اعتبره "بابا دوبلو" أرضية التأليف الفني لكل المنمنمات العربية والإسلامية استعمل كثيرا وبترداد ملفت للنظر في الزخرفة العربية، ودخل في الكثير من أنواع الخط العربي. أما المربّع السحري أو ما سمي بالأوفاق السحرية فعدّ أيضا قاعدة تأليفية للعديد من الموتيفات الزخرفية والكوفية. أما الثياب والأشجار وحتى السماء، فهي عبارة عن خطوط مشابهة لذؤابات الخط النسخي وتعرجاته. ويعد ذلك عاملا مساعدا على اللامحاكاة بوجهها الأول ولاوقعيّتها بالقياس إلى الموضوع الطبيعي أو اقترابها من الأشكال الهندسية في محاولة لإعطائها بعض السمات الروحية، وفي ذلك مجاراة للشريعة. فإن ذلك يعطي بعضا من المشروعية، حيث يجد الناظر في هذه الرسوم بواطن كتابية أو خطوطية وزخرفية قد تكون حائلا آخر دون الاعتراض على هذه الرسوم.

ومن هذه الوجهة فقد كان هذا الموقف فاعلا في تمايز تصور المسلمين للمفهوم الجمالي؛ فعلى الرغم من قيمة الرسم والتصوير عندهم، فإنه لم يكن الرد الكافي على الاحتياجات النفسية لديهم، وخاصة الدينية منها. فقد فضل الفنانون تزيين المساجد والكتب الدينية والأماكن المقدسة بالخط والزخرفة العربيين، جاعلين منهما نتاجا متمايزا لفهمهم الجمالي ومُمَحورين حولهما كافة الفنون التشكيلية الأخرى.

العناية بالخط العربي

لذا فقد شكلت مسألة موقف الإسلام من الرسم والتصوير التشبيهي تأكيدا آخر على انصراف الفنانين العرب والمسلمين نحو العناية الجمالية والتشكيلية بالخط العربي، وتأكيد وبلورة حضوره الفني في كافة المستويات الحياتية. ولا شك أنه كان للنهضة العلمية الإسلامية تأثير كبير في ازدهار الفنون. فقد أفادت الزخرفة من علم الهندسة أيما إفادة؛ إذ تحولت من التسطيح والسذاجة إلى التعقيد والعمق، وترجمت النظريات الهندسية والرياضية عموما إلى فن راق أصبح بدوره شاهدا على ارتقاء الهندسة العملية. نفس الشيء يقال عن تطور زخرفة الخط العربي؛ لقد تحول إلى "خط هندسي" يشي بالدلالات الثرية، ويعكس طابع الأرستقراطية والازدهار في المجتمع الإسلامي. هذا فضلا عن دلالته على الارتباط بتطور الصناعات عموما خلال عصر الصحوة.

وكان تطور الخط الهندسي بمثابة ترسيخ لإحدى القواعد الهامة في علم الجمال حتى حكم أحد الدارسين بأنه ارتقى بالفن الزخرفي إلى ما يشبه تشكيلات موسيقية. كان الخط الهندسي -في المحصلة النهائية- شكلا مهمّا من أشكال الفكر الجمالي، كما كان محاولة لرفع الفن إلى مستوى المُناخات الروحية دون أن تنتزع منه النَّكهة الحسية الحية للتأمل والتخيل.

وينبغي الانتباه إلى أن مقولات الحكم الجمالي، فيما يتعلق بالمصورين كما ذكرها "ميرزا حيدر دوغلات" (٩٥٨هـ/١٥٥١م) هي الرقّة والتناسق، اللتان تضمان قيَما أخرى كالنعومة والطلاوة والرقة والوقع اللطيف والنظافة والصفاء والصقل والمتانة،

في حين أن مصطلحات مثل "غير متناسق" (لاتماثلي) أو "فج" هي التي تعبر عـــن ضآلة "قيمة العمل الفني".

وقـــد كان الرقـــش أو الأرابيسك والخط والزخرفة هي وســـائل الفنان المسلم إلى تحقيق كل المفاهيم الجمالية اللانِهائية التي يصبـــو إلى تحقيقها. ونجد الرقش العربي في نقطة التقاء الخط العربي بالتصوير. والخط العربي هو تجديد في رسم الحروف والكلمات التي تحمل معـــاني معينة، أما التصوير فهو رسم أشـــكال ووجوه تمثل حدثا أو مشهدا واقعيا أو خياليا. أما الرقش فهو رســـم لا يحمل معنًى بيانيا أو لفظيا وإنما ينقل الشـــكل الهيولاني والجوهر لأشياء كانت واقعية.



في ذلك على آي الذكر الحكيم بل تعداه إلى الحديث الشـــريف والأمثال السائرة والحكم البليغة والشعر الرقيق.

سلطان الزخرفة

وبلغ من سلطان الزخرفة الخطية العربيـــة أنها فرضت نفســـها على كثير مـــن مزخرفي الخزف والســـجاد الأوربيين ممن تتلمذ على هذا النشـــاط من الحضارة الإســـلامية. فظهرت من تحت أيديهم زركشـــات فيها ملامح الخط الكوفي النســـخي دون أن تقول شيئا أو تمكن قراءتها.

أما الزخرفة فهي كل رسم يُعمل على مســـطح بقصد ملء الفراغ بهيئات جملية متناســـقة تستريح إليها العين. والزخرفة تكون خطوطا أو هيئات هندسية أو نباتية أو حيوانية. وجمالها يعتمد أولا وآخرا على ذوق صانعها ودرجة سيطرته على المادة التي يزخرفها أو يزخرف بها. ويتأتى أكـــبر جانب من جمال الزخارف من التكـــرار؛ فإن هيئة ورقة العنب شـــكل جميل، فإذا رسمنا هيئات ورق عنب متجاورة في صـــورة متماثلة -على أي هيئة كانـــت- حصلنا على زخرفة. وكذلك يقال عن زهرة اللوتـــس أو الأكانتوس أو الليق أو أي زهرة أخرى.

وقد وصل الفنان المســـلم في إبداعه للزخرفة، حيث جعلها ميدان إبداعه، ووصل بابتكاراته في هذا المجال إلى ما لم يصل إليه غيره من أهل الفن في أي نطاق حضاري آخَر، حيث اعتمد الفنان المسلم على عنصري "التكرار" و"التوازن"؛ فالتكرار المتوالي لأي هيئة يحدث أثرا زخرفيـــا جماليا. والتوازن كذلك له نفس الأثر. وهـــذا التوازن يبدأ من خطين أو منمنين متماثلين، ويســـتطرد إلى صور هندســـية ونباتية وحيوانية لا نهاية لها ولا حد لجمالها. والزخارف قد تكون مجرد رســـوم وقد تحفر بارزة، وقد تكون ذات لون واحد أو أكثر. وقد ابتكر الفنانون المسلمون من تقاطع ما يســـمى بالطبق النجمي، وهي زخارف مستديرة الهيئة تصنع خطوطها نجما في وسطها، وتفننوا في ذلك تفننا يحار فيه العقل.

الرقش والخط

وهنا يتضح أن الرقش كان -وكما توصل إلى ذلك الباحث الكبير "عفيف بهنسي"- مثل الخط من جهة والصورة من جهة أخرى. لقد اتجه الخط العربي من شكله البدائي إلى شكل فني لم يعدله حد في التفنن والتعبير. ومع أنه لم يتخل عن وظيفته فإنه أصبح صيغة فنية مجردة لا ترتبط بالمعنى بذاته، بل بصفته القدسية التي أصبحت جماليـــة تبعا لجمال الخط ذاته. وتـــزداد مكانة الخط الفنية كلما يزداد بُعده عن وظيفته البيانية، وتصبح الصيغ المجردة التي هي من توابع الخط، مستقلة تحيطه بالمزيد من التزويق أو تنفصل عنه لكي تصبح رقشـــا بذاته. وعندما انتقل هذا الخط إلى لوحات منقولة تلاقى بقوة مع الرقش الهندســـي حيث لم نعد نميز أيهما الأصل وأيهما الأثر. واتسع استعمال الخط العربي التشكيلي خارج فن العمارة فمشـــت به ريشة المزخرفين على الخزف، وحفره إزميل النجارين في الخشـــب، وطرزته الإبر بأســـلاك الذهب والفضة وخيـــوط الحرير علـــى الرايات والعصائـــب والملابس والخيام، وصممته أصابع صناع الســـجاد إطارا للبســـط والسجاجيد، وتوزيعا هندسيا في داخل الزخرفة المركزية لها. و لم يقتصر التفنن

وأبدعوا كذلك في استعمال ورقة العنب، وفروع النخيل، والحبيبات (وهي كل هيئة متخذة من أشكال حبوب النبات) والأقراص والزيتون وسنبلة القمح والفصوص والورد والقرنفل والصنَوبر واللبلاب وعباد الشمس، والمشبكات أي الخطوط والدوائر المتشابكة والخطوط المنكسرة والجدائل والخطوط المتعرجة، أو المنحنية، وما إلى ذلك. ونستطيع أن نقول إن الفنان المسلم لم يغادر هيئة يمكن أن تخطر بالبال كعنصر زخرفي إلا استعملها بنجاح.

ومن الملاحظ أن الأشياء غير المزخرفة نادرة بحق في الفن الإسلامي، حتى أن الفخار الرخيص غير المزجج (الخالي من الطلاء) يتضمن دائما شيئا من الزخرفة. وقد لاحظ ذلك بحق المستشرق "إتنجهاوزن" في بحوثه عن الزخرفة الإسلامية. وقد استعملوا الزخارف على شكل إزارات متوازية، أو في صورة أطباق نجمية عند اتساع المساحات، واستعملوا الألوان بنجاح كبير. وكانوا يفضلون الألوان التي ورد ذكرها في القرآن الكريم، كالأخضر والأحمر والأصفر ولون الذهب والفضة. واستخرجوا معاني خاصة للألوان، فقالوا إن السُندس هو الأخضر الفاتح، والإستبرق عند الرسامين والمزخرفين هو الأزرق، وفضلوا الأحمر على غيره وسموه المرجان لورود اللفظ في القرآن الكريم. ومن هذا القبيل سموا اللون الأبيض باللؤلؤ، أما الأحمر القاني فقد سمَّوه بالياقوت، واللفظ قرآني أيضا.

ارتباط الفنانين بالإسلام والقرآن

ومعنى ذلك أن الفنانين المسلمين ظلوا في أعمالهم دائما مرتبطين بالإسلام والقرآن، مما أضفى على أعمالهم جمالا وسحرا روحيا لا يخطئه من يتأمل أعمال أولئك الفنانين الموهوبين. ولهذا السبب أيضا استخدموا الكتابة كعنصر زخرفي، وخاصة آي القرآن الكريم، وبعض الأحاديث الشريفة، بل استعملوا أسماء الرسول ﷺ، وأسماء الخلفاء الأربعة كعناصر زخرفية، وأبدعوا في ذلك أيما إبداع. وهم في الكتابة الزخرفية يفضلون أن يكتبوا بالذهب على أرضية زرقاء داكنة أو إستبرق كما يقولون، ومن مصطلحاتهم: "خط الذهب على بحر الاستبرق".

ولا ينبغي أن ننسى تأثير الصناعات الشعبية في الفنون الإسلامية وزخرفتها. والصناعات الشعبية ليست عملا يدويا تلقائيا، بل هي خبرة فنية متوارثَة، ومهارة يدوية توارثها الإنسان ليجعل من كل شيء حوله شيئا نافعا له قيمة إنسانية.

وقد تتداخل أشكال من الفنون التقليدية مع أشكال من الفنون الشعبية، حتى لا نستطيع أن نحدد ما هو تقليدي -أي قديم وثابت إلى حد ما- وبين ما هو شعبي ومتغير إلى حد ما أيضا.. ولقد كان فن الزخرفة الإسلامية قادرا دائما على الاستفادة من الفن الشعبي الشائع، وهو "الفن الذي لم يتمكن في كثير من الأحيان البقاء، نظرا لاستخدامه مواد هشة، لا يمكنها البقاء مُددا طويلة".

لذا فإنه من الصعب تحديد كيف ومتى عضد الفن الشعبي الفنون الجميلة، ومع ذلك فإننا نلاحظ الظهور المفاجئ لأشكال وأساليب عتيقة في الزخرفة الهندسية، ويتضح لنا ذلك إذا تأملنا مجموعة شبابيك القلل التي يضمها المتحف الإسلامي بالقاهرة، وكيف أن هذه الشبابيك تجمع بين روعة التعبير وتواصله مع الفنون الإسلامية التقليدية.

وأيضا ينبغي أن لا ننسى تأثير رعاية الحكام للفنون الصغرى. فهارون الرشيد يأمر باستدعاء الفنانين لزخرفة قاعة شيدها في حديقة قصره ببغداد، فزينت بزخرفة ورسوم على نمط الرسوم الساسانية. ومعروف أن هؤلاء الخلفاء قد أنشأوا مجالس طليت جدرانها بالزخرفة والصور، وصنع الفنانون لهارون الرشيد مجموعة من الكؤوس نُقشت على كل واحد منها اسْمُه.

ولم يقتصر رعاية الفن على الحكام وحدهم بل راح يقلدهم في ذلك وزراؤهم وكتّابهم وكبار موظفيهم في الدولة؛ فهؤلاء كانوا يكلفون الفنانين بأعمال فنية كتزويق جدران دورهم أو الحمامات التي تشيد لهم. وكشفت الحفائر الأثرية التي أجريت في العديد من مواضع عواصم العباسيين عن عمائر قاموا بإنشائها وزخرفتها، منها بقايا قصور الخلفاء في سامرّاء وما وجد عليها من رسوم ومناظر تصويرية. ولا شك في أن الفنان في العصر العباسي كان يجتهد في تفهّم ذوق راعي الفن ورغباته والامتثال لها. وهكذا وجدناه في كثير من العصور. ■

(*) أستاذ الفلسفة الإسلامية، كلية التربية، جامعة عين شمس / مصر.

المصادر

(١) وحدة أواصر الفنون، د. عفيف بهنسي، مجلة الوحدة، العدد ٣٩، بيروت ١٩٨٧م.
(٢) فلسفة الجمال، د.أميرة مطر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥م.
(٣) نظرية الفن الإسلامي، د. إسماعيل الفاروقي، المسلم المعاصر، العدد ٢٥، الكويت ١٩٨١.
(٤) فلسفة الجمال، د. عبد الفتاح الديدي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥م.
(٥) فلسفة فن التصوير الإسلامي، د. وفاء إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٦م.
(٦) الفنون والآثار الإسلامية، ريتشارد إتنجهاوزن، ت: محمد مصطفى زيادة، الأنجلو ١٩٣٥.

هو الحاضر...



نجيب فاضل*

خبره تبشير طري في كل كرة، مهما كُرّر وأُعيد،

هو الحاضر!

في كل مرة، به من الغفلة إلى الوجد، عبور جديد،

هو الحاضر!

لا أنا ولا الحبيب ولا أحد له بقاء،

هو الحاضر!

إذا ما ضاع الأحبّاء،

هو الحاضر!

إذا ما تفرق الأخلاّء،

هو الحاضر!

أقرب إليك من حبل الوريد،

هو الحاضر!

فلا تبحث عن دواء عند الطبيب،

هو الحاضر!

في السبب والعلة والمقصود،

هو الحاضر!

الفرح الإلهي وشوق الخلود،

هو الحاضر!

المُعين القوي، السند المتين الشديد،

هو الحاضر!

أوحد من الواحد، واحدٌ أحد، بذاته الأحد الوحيد

هو الحاضر!

(*) من كبار شعراء ومفكري تركيا. لقب بـ"سلطان الشعراء"، توفي سنة ١٩٨٣م. الترجمة عن التركية: عوني عمر لطفي أوغلو. وإن عنوان القصيدة "هو الحاضر" يفيد في أصله التركي الحضور، والوجود، والاستمداد، في آن واحد.

عمالقة النظافة

الكائنات المجهرية

د. ولي قارابوغه*

لو لم يتم تحويل أجساد موتى الإنسان والحيوان والنباتات التي على سطح الكرة الأرضية وإعادتُها إلى التربة ولو لعدة سنوات فقط -بَلْهَ المدة المديدة- وبقيت كما هي؛ ماذا كان يحدث؟!

حكمة تحلل الأجساد بعد الموت

إذن لامْتلأ سطح الأرض بالمخلَّفات والقاذورات، ولما وجد بنو البشر مكانا حتى للسير عليها، ولغُطِّيَت الساحات الزراعية بالكامل بالأنقاض، ولما بقيت تربة للزراعة، ولهلكنا من الجوع. في الواقع إن تنظيف الكرة الأرضية من بقايا النباتات والحيوانات وموتى البشر، وإعادتها إلى تربة، وتغذية النباتات وتسميدها بها من جديد، لَتُعتبر من أهم الأحداث وأخطرها.

إذن كيف تم تحقيق هذه الأعمال الخارقة واستمرارها بدون أي تقصير لمئات السنين، أمام أعيننا جميعًا؟!

إن ربنا صاحبَ العلم والقدرة اللامتناهية قد أعدّ الأرض لكل مخلوقاته -وفي مقدمتها الإنسان- لتصبح مكانًا تستطيع أن تعيش عليه... وبناء على ذلك نظم آليات تنظيف هذه المنظومة الكونية؛ حيث تقوم مخلوقاتٌ بوظيفة حماية وجه الكرة الأرضية من أن تتحول إلى مزبلة وكأنها أجهزة تصفية وتنقية، وذلك بتجلٍّ لاسم الله "القدُّوس".

تُرى كم يتطلب تنظيف منزلنا الصغير وحارتنا المحدودة من الجهد والمال للحفاظ عليهما نظيفة كل يوم وكل ساعة؟ إن البلديات تقوم بجهود ومصاريف باهظة من أجل تنظيف شوارعنا. فالنظافة أمر صعب، وسيّدات البيوت يعرفن تمامًا كم تستغرق عملية التنظيف من الجهد يوميًّا، وكم هي عملية مرهقة. نحن والبلديات نترك الفضلات التي نجمعها في أماكن محدَّدة فقط، وحتى إنه لا يخطر على بالنا ماذا يحدث لها هنالك. كل ما نفعله؛ هو أن نتركها ونعود أدراجنا.. هذه الجبال من القمامة، تُرى كيف تُحوَّل إلى تُراب؟ ومن ينظف لنا ما وسّخناه، ويقدمه لنا من جديد نظيفا ونقيّا؟ وكيف يحقِّق ذلك؟ هذا بالإضافة إلى أنه لا يَطلب أيّ أجر مقابل ذلك؟



الكائنات المجهرية ودورها في التنظيف

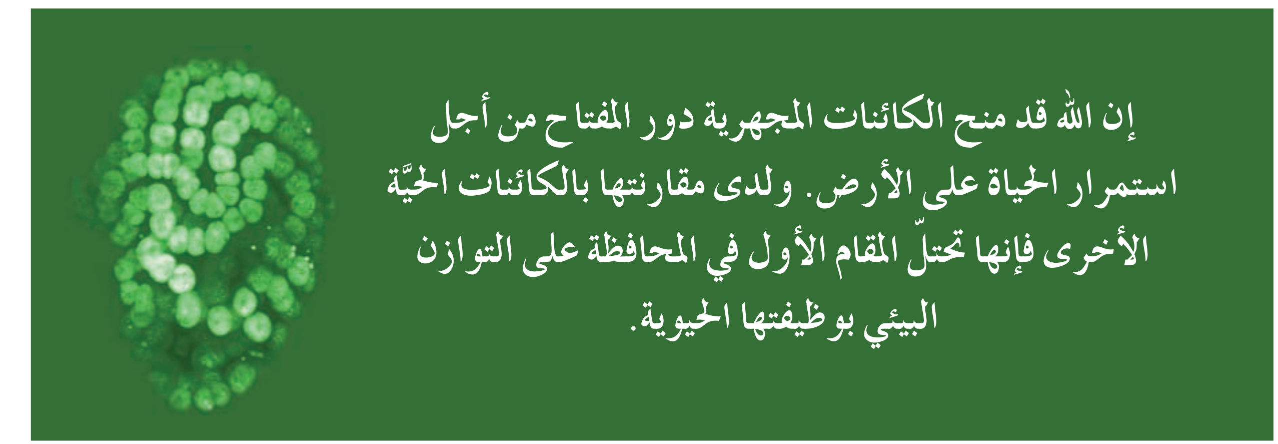
فمن أجل تقديم إجابة على هذه الأسئلة وأمثالها، يجب التعرف على عالم المُتعَضِّيات المجهرية أي الكائنات الدقيقة. إن الكائنات الدقيقة هي كائنات حيَّة متناهية الصغر، لا يمكن رؤيتها بالعين



المجردة؛ ولكن بعد اكتشاف الميكروسكوب (المجهر) أمكن التعرف على هذه الأحياء الصغيرة، وتمكّن عالم الإنسانية من اكتساب بعضٍ من المعارف عن تلك المخلوقات الصغيرة جدًّا خلال ١٥٠ سنة الأخيرة. وقبل هذا التاريخ لم يكن البشر على دراية أو علم بأنهم يتعايشون مع تلك الأحياء الدقيقة التي لا تُرى بالعين المجردة. إن مجموع الكثافة العددية لهذه المخلوقات التي لا تُرى بالعين المجردة تزيد عن مجموع كثافة البشر والحيوانات التي على وجه الكرة الأرضية بخمس وعشرين مرة. فكان الإنسان يرى أصناف الحيوانات التي تشغل جزءً قليلا من الأرض، ولكنه كان غافلا عن هذا الكم الهائل من الكائنات المجهرية الدقيقة.

وكما توجد آلاف الأصناف من الفيلة والحمام والأرانب والحيتان والنمل في عالم الحيوانات، فكذلك هناك أنواع كثيرة جدًّا من الكائنات المجهرية الدقيقة.

إن الكائنات المجهرية الدقيقة غير مرغوبة أو محبوبة، لأن بني البشر يتذكرونها ويقْرِنونها دائماً بالأمراض والأوبئة القاتلة التي أَحْدَثتها طوال التاريخ. بينما الواقع؛ أن الغالبية العظمى من الكائنات الحيَّة الدقيقة لا علاقة لها ألبتّة بالأمراض. ففي مقابل الآلاف من البكتريا، فإن قسما ضئيلا جدًّا من هذه الكائنات المجهرية الدقيقة هي التي تضر بالإنسان. فالقسم الذي يسبب المرض للإنسان من هذه الكائنات الدقيقة كلها ربما لا يمثل واحدًا في المليار من بين كل هذه المتعضيات المجهرية. ففي حالة مراعاة البشر لقواعد النظافة وتطبيقها؛ فإن هذه الكائنات الدقيقة -وحتى التي تُحدث الأمراض-، ستسهم في الحفاظ على التوازن الطبيعي بدلاً من أن تُحدث المرض. وليست الكائنات المجهرية الدقيقة هي السبب في الأمراض بل السبب هو الإنسان الذي لا يراعي أو يهتمّ بالنظافة.



ويمكن دراسة الكائنات المجهرية الدقيقة تحت أربعة أنواع رئيسة: ١-البكتريات، ٢-الفيروسات، ٣-الفطريات، ٤-الحيوانات الطفيلية ذات الخلية الواحدة أو المتعددة الخلايا.

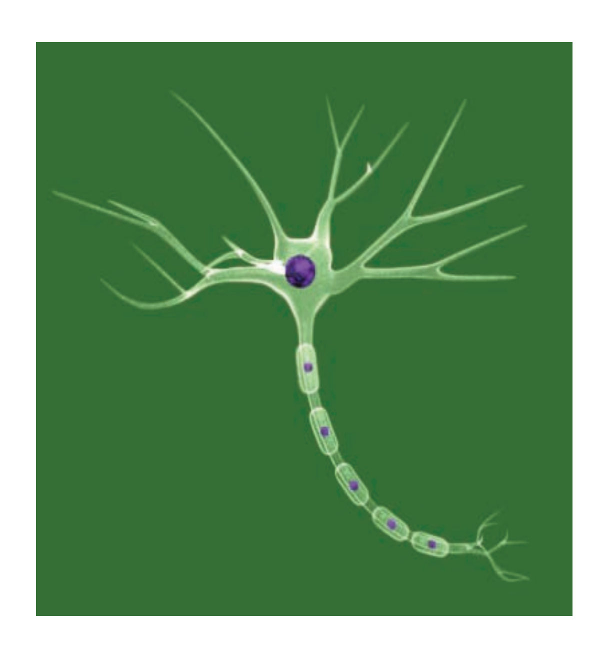
إن الكائنات المجهرية الدقيقة موجودة في كل مكان؛ فهي تعيش في التربة والماء وعلى النباتات وعلى أجساد الحيوانات. وتحمِلها التيارات الهوائية مِن على سطح الأرض إلى الطبقات العليا من الجو ومن قارة إلى أخرى. وفي ملعقة واحدة من التراب توجد الملايين من البكتريا. كما أن الحيوانات وبني البشر يحملون الكثير جدًّا من الكائنات المجهرية الدقيقة؛ ففي مقابل كل عشرة تريليونات من الخلايا في الإنسان توجد مائة تريليون من الكائنات الدقيقة، بحيث إن كل خلية بشرية يقابلها عشر من الكائنات المجهرية.

علاوة على ذلك لو سلّمنا أن الكائنات المجهرية الدقيقة هي السبب في المرض، فالمضادات الحيوية التي تستخدم في علاج الأمراض هي أيضًا مستخلصة من الكائنات الدقيقة؛ فالقدرة التي أوجدت المرض وضعت الدواء في ثنايا الداء. أما الكائنات المجهرية الدقيقة التي تلعب دروًا مهمًّا في صناعة العديد من موادنا الغذائية اعتبارًا من الزبادي إلى الأجبان والخبز وحتى الخل فهي عالم آخر. ولهذا السبب، فعند تقييم المخلوقات يجب أن نُقيِّمها ليس من زاوية واحدة، بل في نطاق الوظائف الكليَّة الموجودة في النظام البيئي بشكل عام.

إن الله قد منح الكائنات المجهرية دور المفتاح من أجل استمرار الحياة على الأرض. ولدى مقارنتها بالكائنات الحيَّة الأخرى فإنها تحتلّ المقام الأول في المحافظة على التوازن البيئي بوظيفتها الحيوية،

رغم حرمانها من ميّزات عدة مثل العقل والشعور والمخ والنظام العصبي.

فمن أجل تغذية النباتات وتسميدها تُستخدم المخلفات الحيوانية والزراعية، ولكن هذه المخلفات هي جزيئات عضوية يجب أن تحول وتفتت إلى جزيئاتها اللاعضوية، أي إلى حالتها الأصلية. وإذا لم يحدث ذلك، فإن جذور النباتات لا تستطيع أن تمتص هذه الذرات. فالكائنات المجهرية هي التي تنفّذ عملية تحويل موتى الحيوانات والنباتات إلى تراب بحيث يمكن للنباتات أن تمتصها.



ولا بد لتحويل كل عنصر كيميائي مِن عناصرِ ذوات الروح الميّتة، وتغييرها إلى حالة لاعضوية في التربة، من صنف خاص من الكائنات المجهرية. ولكي يقوم كل عنصر في التربة بتقديم خدمة للنبات، فإن المشاركة بين الكائنات المجهرية المتنوعة أمر ضروري لا يمكن الاستغناء عنه لاستمرار الحياة. والحقيقة أن هذه العمليات هي أكثر تعقيدًا من العمليات التي تجري أثناء الإنتاج في مصنع للسيارات.

الكائنات المجهرية وتوازن الكربون

إن الكائنات المجهرية الدقيقة المختلفة الأنواع مكلّفة بوظائف في عملية تحويل كل عنصر من عناصر الفوسفور والحديد والزنك وكل عنصر من العناصر الأخرى إلى أشكال لاعضوية. إن ما يربو على ٨٠ نوعا من العناصر توجد في الأحياء في حالة مركبات عضوية، فتفتيت كل عنصر من هذه العناصر من قبل مجموعة مختلفة من الكائنات المجهرية الدقيقة، وتقديمها لعالم الأحياء لهو تنظيم مُحَيِّر ومدهش.

إن كلا منا مُحاط من الداخل ومن الخارج بكائنات مجهرية دقيقة لا تُحصى ولا تُعد، تجعل الحياة تستمر بشكل مشترك وتتغير بشكل مطرد ومتوازن معنا ومع بعضها البعض.

وعندما اكتشف سنة ١٨٥٠ أن الكائنات المجهرية الدقيقة كانت سببًا في أمراض مُهلكة ومعدية، أعلن الإنسان عداوته الضارية لهذه المخلوقات الدقيقة. وفي الحقيقة لم تكن هذه الكائنات هي المذنبة بل كان الإنسان هو المدان. فخلال الحرب التي بدأها القادة الظلَمة الذين لا يقيمون وزنًا أو حقًّا للإنسان والإنسانية بسبب أنانيتهم الذاتية، ولعدم اهتمام الكتل العسكرية بالنظافة، والاستخدام الأخرق لِمصادر ومواد الغذاء في الدول الفقيرة من قبل الدول الأخرى، وعدم إعطاء العناية الكافية لنظافة البيئة وأجسام البشر... بسبب هذه العوامل كلها أصيبت البشرية بأوبئة الفتاكة التي أودت بحياة ثُلث سكّان القارات طوال التاريخ.

لو استطعنا نحن كعقلاء أن نستوعب الحكمة من خلق هذه الكائنات الحيَّة؛ ولو بذلنا جهودنا من أجل منع تطور الأوساط المسببة للأوبئة الفتاكة؛ ولو فكّرنا أن المضادات الحيوية التي تستعمل لبعض الأمراض التي تظهر من حين لآخر إنما هي من الكائنات المجهرية الدقيقة أيضًا، وأننا إنما نأكل أغذيتنا بدءً من الخبز حتى الأجبان بواسطة الكائنات الدقيقة التي يُسمى جزء منها الخميرة؛ والأهم من كل ذلك لو استطعنا أن نُمْعن النظر والتفكير في كمون هذه الكائنات الحيَّة التي لا تُرى بالعين المجردة تحت هذا التوازن البديع المتكامل... لو فكّرنا في ذلك كله لأمكننا أن ندرك الرحمة والشفقة التي أولانا إياها ربنا صاحبُ القدرة اللانهائية.

إن الكائنات المجهرية الدقيقة التي تجعل وجه هذه الأرض الشاسعة لامعةً ناصعة، والتي تستحق أن تسمّى "عمالقة النظافة" بما تقوم به من أعمال... لَتُظهر حكمة الخلق الباهرة ونظام الكون المتكامل العجيب، وتجليات اسم الله "القدوس" التي تشمل كل الوجود. ■

(*) كاتب وباحث تركي. الترجمة عن التركية: الصفصافي أحمد القطوري.



خصائص السرد القصصي في القرآن الكريم

أ.د. محمد مشرف يوسف خضر*

القصة القرآنية هي قصة لها أهدافها التي ترجع إلى طبيعة الكتاب الكريم؛ فهو كتاب دعوة، والقصص فيه كذلك وسيلة من وسائل الدعوة. فدائما تأتي القصة فيه لأهداف تحققها، وغايات تسعى إليها ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾(الأعراف:١٧٦)، ﴿وَكُلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾(هود:١٢٠)، ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ﴾(يوسف:١١١).

وقد كثر القول حول القصص القرآني كثرة توهم بانتهاء القول حوله، وتشكك في احتمال تقديم جديد في هذا الصدد؛ ولكن القرآن كتاب متجدد لا يَخلق على مر الدهر، وهو صالح لكل جيل؛ ومن هنا كانت المحاولة دائما مأجورة، وأقرب الأجر جديد يشعر المرء أنه وصل إليه، أو قدمه، وهل شيء أشرف من خدمة القرآن!

وهنا نتتبع خصائص القصص القرآني تتبّعا نرى فيه مظنة تقديم الجديد، من حيث إن المنهج الذي سنتناوله منهج جديد؛ هو المنهج السردي الذي يبدأ بتقسيم إجرائي للعمل القصصي إلى قسمين هما المعنى والمبنى، أو المتن الحكائي والمبنى الحكائي بتعبير الشكلي الروسي "توماشفيسكي". وحديثنا عن الخصائص هو حديث عن نتائج دراسات طويلة لا نرى داعيًا لذكرها، لدلالة المذكور عليها، ونبدأ بالمتن الحكائي:

خصائص المتن القصصي في القرآن الكريم

إن متتبع القصة في الكتاب الحكيم يجد أن ثم قصصا يرد أكثر من مرة في مواضع مختلفة، وآخَر يرد ذكره مرة واحدة فقط، وأن النوع الأول يأتي في كل مرة يذكر فيها بشكل مختلف، كما نرى في قصص: آدم ونوح وهود وصالح ولوط وشعيب وموسى عليهم السلام... وفيها جميعا نجد نواة وظيفية تتكرر، فيما عدا قصص آدم عليه السلام الذي يمثل مقدمة وسببا في وجود هذه النواة.

نقرأ في ختام قصة آدم عليه السلام قوله تعالى ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ۞ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾(البقرة: ٣٨-٣٩). ثم تتوالى القصص بعد ذلك: يأتي الهدى من الله، فيتبعه الناجون، ويكذّب به الهالكون. ومن ثم كانت تلك النواة الوظيفية التي انبنى عليها جميع القصص التالي:

١ – الدعوة إلى عبادة الله وحده.

٢ – الرفض والاستكبار.

٣ – نجاة المؤمنين، وإهلاك الكافرين.

هذه البنية تقابلنا في كل مرة في القصص المذكور، تتغير الشخصيات، بينما تظل وظائفها ثابتة؛ تظلّ الدعوة، ويظلّ التكذيب، وتظل العاقبة... وكأنها قصة واحدة تتكرر حلَقاتها على الصورة نفسها، كلما كانت فترة نسي فيها الإنسان عداوة الشيطان ووعيده القديم.

غـــير أن الهدف الذي تأتي من أجله القصة –من قصص النبي الواحد– يجعلها تختلف في كل مـــرة في بنيتها الوظيفية؛ فيكون التركيز على وظائف دون غيرهـــا، ويكون بحضور وظائف أو غياب أخرى، مما يؤثر في متتالية الوظائف، فيجعلها بالتالي قصة جديدة في كل مرة.

خصائص البنية الزمَنية في القصص القرآني

وإن مراجعة ســـريعة للبنية الزمنية في القصص القرآني من خلال ملاحظة الإيقاع الزمني، المتمثل في الحركات الســـردية الأربع: الحذف، والوقفة الوصفية، وبينهما وسيطان هما: المشهد والمجمل؛ وكذلـــك من خلال ملاحظـــة المفارقات الزمنيـــة أو علاقات الترتيب... إن مراجعة سريعة تُرينا مَدى هيمنة المشهد الحواري على السرد القصصي القرآني. ومن خصائص المشهد أننا فيه نجد التحام الزمن القصصي بالزمن الســـردي، ويصير حاضر السرد هو حاضر الأحداث، فيتحول المتلقي إلى مشـــاهد يعاين الوقائع بنفســـه، ينفعل بها، ويتفاعل معها كأنه واحد من شـــخصيات المشـــهد. ويتناوب الحذف، والإيجاز، والمشـــهد كثيرا؛ الحذف يتخطى أحداثا لا يحتاجها الموقف القصصي، وهو يتراوح بين أن يكون حذفا ضمنيا، يستدل عليه من ثغرة في التسلسل الزمني، أو انخلال للاستمرارية السردية كما نجد مثلا في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَـــوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَـــاجِدِينَ ۝ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾(ص:٧٢-٧٣)، وجُلّ حذوف القصص القرآني من هذا النمط. وفي مواطن كثيرة نســـتطيع الاستدلال على الحذف من مواضع أخري في سياقات مختلفة، ومرة واحدة فقط نجد حذفا محدود المدة، في قوله تعالى من قصص نوح عليه السلام في ســـورة العنكبوت: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَـــلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَـــنَةٍ إِلاَّ خَمْسِـــينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾(العنكبوت:١٤).

والإيجاز يعرض للأحداث عرضا سريعا مجملا لأهمية ذكرها في السياق ولكن في غير تفصيل، كما في وظيفة الإهلاك والنجاة، في قصص الأنبياء، التي تأتي –غالبا– موجزة؛ فتدل من ناحية على هـــوان الهالكين على الله عز وجل، ومن ناحية أخرى على قدرة الله تعالى المطلقة. والمشـــهد يعرض الأحداث الرئيسية المشكلة للعمـــود الفقري للنص، وهو يأتي غالبا على هيئة حوار خارجي أو مونولوج داخلي. والمشهد، كما يقول "عبد العالي بو طيب"، يعطي القارئ إحساسا بالمشاركة الحادة في الفعل، إذ إنه يسمع عنه معاصرا وقوعه كما يقع بالضبط، في لحظة وقوعه نفســـها. ولا يفصل بين الفعل وسماعه ســـوى البرهة التي يستغرقها صوت الروائي في قوله، لذلك يســـتخدم المشهد اللحظات المشحونة، ويقدم الراوي دائما ذروة سياق من الأفعال وتأزمها في مشهد.

ويرى "ويليام هاندي"، بحق، أن المشـــهد في العمل السردي يمكن أن يُنظـــر إليه على أنه مماثل للصورة في الشـــعر، ومن ثم يضيف أن "كلا من المشهد والصورة يمتلك الخصائص الأساسية نفسها:

١-كلاهما يعرض أكثر مما يوحي.
٢-كلاهما يشكل مظهرا مفردا لمعنى مضاعف.
٣-كلاهما يقصد إلى صياغة الخصوصية أي نسيج التجربة.
٤-كلاهما موجه أولا إلى الحس، وليس إلى الفكر المجرد.
٥-كلاهمـــا يتخطى المفهوم في احتوائه معنى أكبر مما يســـتطيع المفهوم أن يصوغه من خلال طبيعته الأصلية."

إنها اللحظات الأكثر توترا في القصة يعرضها المشهد الحواري (غالبـــا) في القصة القرآنية، كما نـــرى مثلا في قصص الأنبياء، حيث تأتي دائما وظيفتَا "الدعوة" و"التكذيب" على صورة مشهد حواري. وهما الوظيفتان الأكثر أهمية في القصص القرآني بوصفه وسيلة دعوة. والوصف يكاد لا يوجد في القصص القرآني، اللهم إلا في مواضع معدودة، أظهرهـــا ما نراه من وصف لقارون في سورة القصص ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾(القصص:٧٩) وكأنه دمْية تمثل زينة الحياة الدنيـــا، تُعرض في صمت ليفتتن الناس بها. وكذلك وصف صاحب الجنّتين في سورة الكهف حين ضاعت جنّتاه ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾(الكهف:٤٢).

أما بالنسبة لعلاقات الترتيب بين زمني القصة والسرد فكثيرا ما تبدأ القصص باستباق، يهيّئ نفس المتلقي، ويوجه توقعاته، على نحو ما نجد في قصص آدم عليه السلام حيث هناك الاســـتباق الإعلاني الذي يتصدر أكثـــر القصص. وفيه يخبر المولى عز وجل الملائكة بأنه ســـيخلق بشـــرا من طين، وما يلي بعد ذلك يترتب بوجه من الوجوه على هذا الاســـتباق، كما في رفض إبليس السجود لمخلوق طيني. وحين تبدأ قصة آدم في سورة طه باستباق داخلي عن نســـيان آدم عليه السلام، فإن السرد يســـير من ثم على هذا النحو ليذكر قصة نسيان آدم. ومثل هذا نراه كذلك في قصص سورة

القمر، التي تبدأ جميعها باستباق يحدد موضوع القصة، الذي كان دائما تكذيب قوم نبي من الأنبياء.

والاستباق المختلط في القصص القرآني له خصوصيته التي تتمثل في انفتاحه على المستقبل البعيد المتمثل في القيامة، كما في قصة آدم (عليه السلام): ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ۞ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ۞ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ ءَايَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾(طه:١٢٤-١٢٦). أو كما نرى في قصة ذي القرنين: ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾(الكهف:٩٨-٩٩).

والاسترجاع كذلك يقابلنا في القصص القرآني، ولكن بصورة أقلّ من الاستباق الذي يبدأ به أكثر القصص؛ فنجد الاسترجاع مثلا مختلطا باستباق العليم في قصة هود (عليه السلام): ﴿وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلاَ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾(هود:٦٠) وهذا الاستباق خاص بالقصة القرآنية؛ وهذا راجع أولا لطبيعة صاحب الخطاب عز وجل عالم الغيب والشهادة؛ وثانيا لطبيعة القصة القرآنية التي هي وسيلة رئيسية من وسائل الدعوة. وربما تركّز الاسترجاع في قصص نبي من الأنبياء، كما في قصص لوط (عليه السلام) من سور القمر والشعراء والحجر والعنكبوت؛ ففي سورة القمر يأتي الاسترجاع للتذكير بأن ما حل بقومه إنما كان جزاء وفاقا لما قابلوا به دعوته لهم وإنذاره من تجاهل وتكذيب. ومثل ذلك في سورة الشعراء؛ بينما في سورتَي الحجر والعنكبوت، يأتي استرجاع جانب من قصص إبراهيم (عليه السلام). وفي قصة موسى والعبد الصالح نجد الاسترجاع أربع مرات متتالية.

وتجدر الإشارة إلى أن القصة القرآنية، لوجودها في فضاء النص القرآني، تخضع لزمنيتين مختلفتين: الأولى تتعلق بزمن القصة القرآنية، وتتعلق الثانية بزمن النص القرآني. زمن القصة يبدأ مع الدخول الفعلي في عالمها، وزمن النص القرآني يحيط بزمن القصة، ويحتويه. ويمكن أن نعده زمنا حاضرا للسرد، أو زمنا أولا تقاس المفارقات الزمنية الكبرى بالنسبة إليه. فالقصة بكاملها تكون استرجاعا أو استباقا حين تتعلق بهذا الحاضر الزمني للنص، كما نرى مثلا في قصة أصحاب الجنة: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾(القلم:١٧)، أو في قصص سورة القمر: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾(القمر:٩) وفي غيرها.

خصائص الصيغة السردية في القرآن الكريم

في القصص القرآني يتجلى من صيغ الخطاب صيغة المنقول المباشر التي تهيمن على الحكي، وتطبعه من ثم بطابع أمانة النقل للقول الوارد، وبهذه الصيغة ترد الوظائف المهمة في القصص. ففي قصص آدم (عليه السلام)، تأتي الوحدة السردية الأولى -وهي إخبار الله تعالى الملائكة بخلق آدم- دائما في صيغة الخطاب المنقول المباشر، التي تحمل إلينا حوار الله والملائكة في هذا الشأن ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾(البقرة:٣٠). ودائما يأتي الإخبار عن الخلق بضمير المفرد الغائب، ودائما بصيغة واحدة لا تتغير ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائكَةِ﴾ في سور (ص:٧١) و(الحجر:٢٨) و(البقرة:٣٠).

يلي هذا الوحدة الثانية "سجود الملائكة وامتناع إبليس" التي تأتي بالصيغة نفسها، ودائما بضمير الجماعة الدال على العظمة، ودائما بالصيغة الواحدة التي لا تتغير: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ﴾ في سور (طه:١١٦) و(الكهف:٥٠) و(الإسراء:٦١) و(البقرة:٣٤). وتكتمل الوحدة بالصيغة ذاتها، لتعرض لطاعة الملائكة، واستكبار إبليس، وامتناعه عن السجود، ومن ثم ذلك الحوار الطويل بينه وبين الله، الذي يأتي في صيغة المنقول المباشر لأهميته الشديدة، لا في قصة آدم فحسب، وإنما -كما قلنا من قبل- في قصة الحياة بصفة عامة.

وفي قصص الأنبياء، نجد دائما وظيفتَي الدعوة والتكذيب تأتيان بهذه الصيغة (المنقول المباشر) بعد أن يتم التحضير لهما بصيغة الخطاب المسرود. ففي سورة الأعراف ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾(الأعراف:٥٩)، ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾(الأعراف:٦٥)، ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾(الأعراف:٧٣)، ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾(الأعراف:٨٥).. الصيغة دائما واحدة، والدعوة أيضا واحدة.

وهذا أيضا ما نجده في سورة هود وفي سورة الشعراء ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ۞ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلاَ تَتَّقُونَ ۞ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾(الشعراء:١٠٥-١٠٧)؛ ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ۞ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلاَ تَتَّقُونَ ۞ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾(الشعراء:١٢٣-١٢٥)؛ ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ۞ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلاَ تَتَّقُونَ ۞ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾(الشعراء:١٤١-١٤٣)؛ ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ۞ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلاَ تَتَّقُونَ ۞ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾(الشعراء:١٦٠-١٦٢)؛ ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لْئَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ۞ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلاَ تَتَّقُونَ ۞ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾(الشعراء:١٧٦-١٧٨). هذا الاتحاد في الصيغة الكلية للدعوة، بل في كلمات الدعوة، يجعلنا وكأننا أمام نبي واحد، ورسالة واحدة. وإنها لكذلك، وما يزال قول الله تعالى لدى هبوط آدم عليه السلام إلى الأرض ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(البقرة:٣٨) يتردد ما دامت السماوات والأرض، وما زال الهدى يأتي من الله، فمن تبعه نجا وسلم.

خصائص الرؤية السردية في القرآن الكريم

من خلال تتبع تقنيات الرؤية السردية في القصص القرآني نعاين هيمنة الرؤية المحايدة على الحكي. وفي هذه التقنية يتم تنظيم الحكي من موقع خارجي، بينما تُترك شخصيات السرد تتحدث بأصواتها دون تدخل، مما يعطي انطباعا للمتلقي بصدق ما يتلقى، حين يجد نفسه مشاركا في الحكي بوصفه مشاهدا حاضرا ومستمعا لما يجرى من حوار. تتجلى هذه الرؤية في وظيفة الدعوة، من قصص الأنبياء، وما يصاحبها من جدل التكذيب، حيث الحاجة إلى معرفة التفاصيل المتلبسة بالدعوة، كعلاقة الرسول بقومه، ومنهجه في دعوتهم، وهدفه منها... وكل هذا يجري أمام عينَي المتلقي من خلال الرؤية المحايدة، فيرى بموضوعية، وعليه من ثم أن يحكم بعقله على ما رأى، وأن يجنب كل حكم للهوى، أو للعادة.

ويظهر كذلك، وإن بصورة أقلّ، تقنية الرؤية الذاتية، التي تُلحق دائما بنا الفاعلية الدالة على العظمة، ومن خلالها يتم حكي الأحداث الفاصلة في القصص، تلك التي تحتاج إلى قوة قاهرة متصرفة، مثل عملية الخلق، وإرسال الرسل، وإنجاء المؤمنين، وإهلاك الكافرين. فنحن نرى قصص الأنبياء في سورة القمر، تبدأ كلها بالرؤية الذاتية؛ تعرض نماذج لأمم كذبت قبل أمة محمد ﷺ، وكيف كان عذاب الله لهؤلاء المكذبين في الدنيا قبل الآخرة، فلتحذر أمة محمد أن تكذب هي الأخرى بالنذير، فهي أمة كالأمم التي توالى سرد ما حاق بها من عذاب. ولعرض صور العذاب من خلال الرؤية الذاتية أثره البيّن في النفس. فالمتكلم هو الفاعل، ولن يكلفه الأمر شيئا ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾(القمر:٩)، وعاد وثمود وقوم لوط، وآل فرعون، ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ﴾(القمر:١١)، ﴿وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾(القمر:١٢)، ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ﴾(القمر:١٩)، ﴿تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾(القمر:٢٠)، ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾(القمر:٣١)، ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ﴾(القمر:٣٨)، ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ﴾(القمر:٤٢)، ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾(القمر:٤٣).

يبقى بعد ذلك الرؤية الذاتية المحايدة، وهي تتخلل القصص القرآني. ومن اسمها فهي تجمع بين الرؤيتين السابقتين، مع غلبة الرؤية الذاتية فيها، وشكلها الأمثل، حيث يأتي قول الحق سبحانه وتعالى من خلال ضمير العظمة الذي يأتي فاعلا في القصة والسرد على السواء ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾(الإسراء:٦١) وهي قليلة وتأتي غالبا تمهيدا للرؤية المحايدة أو في أعقابها.

والرؤية المحايدة الذاتية، وهي على عكس السابقة، تغلب فيها الرؤية المحايدة، وتتمثل في نقل معنى الكلام لا نصه كما في قوله تعالى في قصص لوط عليه السلام ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ﴾(الحجر:٦٦).

وثم ملاحظة نلفت إليها، تتمثل في تداخل الرؤيات الذي نجده في بعض المواضع في القصص القرآني، مثل ذلك القسم الخاص ببني إسرائيل في قصص موسى عليه السلام من سورتَي (الأعراف:١٣٨-١٦٨) و(طه:٨٠-٩٨). فلعل هذا التداخل يأتي بقصد التوجيه النفسي للمتلقي مما يناسب ما يؤديه هذا القسم من عرض لانحراف بني إسرائيل وفساد طبيعتهم. ■

(*) جامعة طنطا، كلية الآداب، قسم اللغة العربية / مصر.

بذرة صغيرة تنشئ شجرة باسقة... من ماءٍ مَهين نشأَ هذا الإنسان العظيم... ومن قطرات الماء هَدرتِ البحار وتَصاخَبَت الأمواج... فإيّاك أن تستهين بالصغير فإنّك لا تدري أيّ كبير بالغد سيكون...!

* * *

كيف تنهار الدول؟

اورخان محمد علي*

كان عهد السلطان سليمان القانوني -في رأي معظم المؤرخين- هو العهد الذهبي للدولة العثمانية. فقد اتسعت حدود الدولة وفتحت بلدان وأمصار عديدة في هذا العهد، وعمّ الرخاء والرفاه جميع أنحاء المملكة. ولكن السلطان سليمان كان يعلم من استعراض التاريخ أن كل دولة قوية لا بد أن تضعف وتدبّ فيها عوامل الضعف والانحلال.. إذ لكل أمة أجل.. فهل سيكون هذا هو مصير الدولة العثمانية أيضا؟ أليس هناك من مهرب من هذا المصير؟ بدأت هذه الأسئلة بإشغال فكره عدة أيام يحاول أن يجد لها جوابا.

وعندما طال تفكيره وحيرته قرر طرح هذا السؤال وهذا الموضوع على العالِم المشهور "يحيى أفندي" الذي كان في الوقت نفسه أخاه من الرضاعة. لذا كتب له رسالة ضمّنها سؤاله. كان هذا العالم يقيم في تكية في منطقة "بَشكتاش" في إسطنبول. كتب إليه يقول بعد الديباجة الاعتيادية: "أنتم ملمون بمعرفة العديد من الأسرار، لذا نرجو منكم أن تتلطفوا علينا وتُعلمونا متى تنهدم الدول؟ وما عاقبة الدولة العثمانية ومصيرها؟"

كان جواب يحيى أفندي جوابا قصيرا ومحيِّرا في الوقت نفسه. قال في جوابه: "ما لي ولهذا أيها السلطان؟ ما لي أنا؟"

تعجب السلطان سليمان من هذا الجواب وتحير. أيوجد في هذا الجواب معنى سرّيّ لم يفهمه؟ و لم يجد حلاً سوى الذهاب بنفسه إلى يحيى أفندي في تكيّته. وهناك كرر السؤال نفسه وأضاف في لهجة يشوبها العتاب: "أرجو منك يا أخي أن تجيب على سؤالي وأن تعد الموضوع جديا وخبرني ماذا قصدتَ من جوابك؟"

قال يحيى أفندي: "أيها السلطان! إذا انتشر الظلم في بلد وشاع فيه الفساد وقال كل من سمع وشاهد هذا الظلم والفساد "ما لي ولهذا؟" وانشغل بنفسه فحسب.. وإذا كان الرعاة هم الذين يفترسون الغنم، وسكت من سمع بهذا وعرفه.. وإذا ارتفع صراخ الفقراء والمحتاجين والمساكين وبكاؤهم إلى السماء، و لم يسمعه سوى الشجر والمدر... عند ذاك ستلوح نهاية الدولة. وفي مثل هذه الحال تفرغ خزينة الدولة، وتهتزّ ثقة الشعب واحترامهم للدولة، ويتقلص شعور الطاعة لها، وهكذا يكون الاضمحلال قدَرا مكتوبا على الدولة لا مفر منه أبدا." ■

(*) كاتب وباحث تركي.



يا خميرة الفضيلة، يا غمامة طُهر تسبح في الفضاء!
هيا اهطلي علينا خيراً وجمالاً وصدقاً. فالدنيا إليكِ
ظامئة، فقد آن أوانك وأظلّ زمانك.
***

بين المشاعر والشعائر

سلام الإيمان

د. سمير بودينار*

قيم مؤسسة على الإيمان هي قيم مطلقة في نفس من يؤمن بها كيفما كان ذلك الإيمان، وعن أي مصدر صدر. والقيم والمبادئ التي جاء بها الإسلام مطلقة في وجدان من يؤمن به صلاحية وفاعلية، سواء اتصلت بأحد جوانب الحياة الإنسانية كالجانب النفسي أو الأسري أو الاجتماعي أو الدولي، أو كانت مبادئ وقيما عامة تشمل هذه المستويات كلها كمبدأ السلام.

من هنا نرى أهمية فهم المدخل الإسلامي لفكرة السلام من خلال أصالة المبدأ في التصور الإسلامي، كما في تجليات الإيمان ومستويات السلام الذي يحققه في حياة الفرد والجماعة، استمدادا من مصدر ذلك الإيمان المطلق، بدءً من مستوى الشعار وصولا إلى منزلة الشعائر، فضلا عن اكتنافه مشاعر الإنسان المؤمن الذي تحصل له السكينة والأمان، وينعم في جوانحه بمعاني السلام الدائم المتجدد.

السلام شعارا للإسلام

إن الآصرة الوثقى للسلام بالإسلام تبدأ من مستوى الشعار، أي اسم هذا الدين نفسه. فكلمة الإسلام، وهي اسم الرسالة الموحى به من الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا﴾(المائدة:٣) مشتق من المادة اللغوية "سلم" التي ترد بمعان ثلاث: أولها، معنى الخلوص والتعري من الآفات الظاهرة أو الباطنة؛ وثانيها، معنى الصلح والأمان؛ وثالثها، معنى الطاعة والإذعان.

فترى أن أحد معاني المادة اللغوية للإسلام هو الصلح والأمان، بل إن معاجم اللغة ومصادرها تبين أن كلمة "السلم" قد ترد بمعنى الإسلام. وإذا علمنا وثوق صلة الاسم في اللغة بالمعنى بَانَ أنّ شعار الإسلام نفسَه، وعنوانَه الذي يدل عليه، هو الصلح والأمان الذي جاءت به الرسالة ودعت إليه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾(البقرة:٢٠٨).

ويتأكد ذلك الارتباط مع كل عناصر عقيدة المسلم؛ فمن أسماء الله تبارك وتعالى "السلام" ﴿هُوَ اللهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلاَمُ﴾(الحشر: ٢٣)؛ والجنة التي وعد بها المؤمنون، والتي يتطلعون إليها هي "دار السلام" ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلاَمِ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾(الأنعام: ١٢٧)؛ وتحية المسلمين في الدنيا والآخرة "السلام"

﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ﴾(إبراهيم:٢٣)؛ وكتاب الله تعالى نزل في ليلة كلها سلام، ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾(القدر:١) ﴿سَلاَمٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾(القدر:٥).

وقد كَتَب بعض مفكري المسلمين في هذا العصر عن كلمة "السلام" في حياة المسلم وبيّنوا أنها أحد أكثر ما يتردد من كلمات العالم في كل يوم بفضل رسالة الإسلام، وكونها جزءً من عبادة المسلم (الصلاة، الحج) وعلاقته بمن حوله من الناس (التحية).. أوَليس السلام إذن هو شعار الإسلام الأول؟!

السلام النفسي في الإسلام

يرى كثير من علماء الاجتماع والسياسة أن الإنسان هو منطلق العالم نحو السلام، وأن سلام العالم إنما يبدأ من النفس الإنسانية؛ فإذا عاشت هذه النفس سلاما داخليا، أثمر ذلك سيادة معاني السلام في حياة الجماعة والدولة والإنسانية جمعاء، وإذا افتقدته عزّ على العالم أن يدرك هذه الغاية أو يلمس آثارها.

من هنا يُدرك كيف أن كثيرا من المجتمعات ماضيا وحاضرا فقَدت معاني السلام في حياتها، رغم كل المبادئ المعلنة والقوانين المسطرة والشعارات المرفوعة؛ إذ تظل هذه المعاني بعيدة في غياب شروط السلام الداخلي للإنسان وأسبابه. ولهذا ينطلق التصور الإسلامي للسلام الشامل من السلام النفسيّ؛ فالإنسان الحائر المضطرب، الفاقد معاني السكينة والاطمئنان الروحي هو أبعد ما يكون عن إقامة مبادئ السلام في الحياة.

ويقوم مفهوم السلام النفسي في الإسلام على جملة مبادئ عقدية وشعائر تعبدية وقيم أخلاقية، جاءت بها الرسالة، تبلغ في مجموعها النفس الإنسانية منزلة الأمن والسلام، وتعصمها من الاضطراب والتناقض، وذلك من خلال منظومة قيم الإسلام وأحكامه عامة، ومقتضيات العقيدة والعبادة خاصة.

العقيدة مصدرا للسلام

إن الأساس الذي تقوم عليه عقيدة الإسلام وشريعته وسائر أحكامه هو الإيمان بالله وما يترتب عنه من التوكل عليه واللوذ به والإنابة إليه والاعتصام بحبله والتسليم له والأنس به ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾(الرعد: ٢٨) بكل ما يحمله الإيمان من معاني التسليم لله بقضائه والانقياد لقدره والاعتقاد في أثرهما على مسار الحياة. فالإنسان الذي يظفر بالإيمان الحقيقي يستطيع أن يتحدّى الكائنات ويتخلّص من ضيق الحوادثِ، مستندًا إلى قوة إيمانه فَيبحرُ متفرجًا على سفينة الحياة في خضم أمواج الأحداث العاتية بكمال الأمان والسلام. وهو أمر يدفع الإنسان إلى العمل والسعي والاجتهاد موقنا بأن قدر الله ماض وأمره نافذ؛ فلا يأسى على ما فاته فتصبحَ النفس نهبا لليأس، ولا يفرح بما أتاه فتتشط بعيدا عن دوام التذكر أن ما بها من نعمة فمن الله، وأن ما أخطأها لم يكن ليصيبها وما أصابها لم يكن ليخطئها وأن لها ربًّا قادرا متصرفا، بيده مفاتيح الغيب وأسرار المستقبل، والنفع والضرر، والعطاء والمنع، ومنه التوفيق والسداد.

ومن فطرة الإنسان المقترنة بخاصية الضعف البشري أنه دائم الحاجة إلى قوة أكبر منه، يشعر في وجودها بالأمان من قوى الكون التي لا طاقة له بها وصروف المستقبل التي يدّخرها، وهي حاجة عبّر الإنسان عنها على امتداد تاريخ الإنسانية في كافة الحضارات والثقافات. فإذا كان الإيمان بالله أساس العقيدة وجوهر التوحيد ومبتدأ الإيمان وأهمَّ مفاهيم الإسلام وأسمى أحكامه، أمِنَ الإنسان المسلم في حياته متى انقاد إلى مقتضيات هذه العقيدة، مدركا أن له ربا قويا قادرا وأن هذا الإله سميع بصير، قريب مجيب ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾(البقرة: ١٨٦). وحسب هذه الصلة بين العبد وربه، أنها تهب نفس المخطئ الرجاء والأمل، وتحفزه على الأوبة والتوبة الدائمتين، استجابة لنداء الله ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾(الزمر: ٥٣). وفي التوكل على الله راحة للنفس من عبء ثقيل تحمله النفوس التي لا تهتدي إلى توحيد الله.

أما المؤمن فيتحصَّن أمام كل مصيبة مستندًا إلى التوكل، فيمنحه إيمانه هذا الأمان التام والاطمئنان الكامل، وأما غيره فينوء بعبء الحياة الدنيا بهمومها وهواجسها واحتمالاتها، لذلك تظل الأسئلة الوجودية الكبرى التي تلحّ على الإنسان في أي زمان ومكان.. أسئلةُ المبتدأ والمآل، والمُوجِد، والغاية من الحياة ومصير الكون والإنسان.. تظَلّ حاضرة ملحّة، ما لم يجد لها أجوبة متكاملة، يقدمها الإسلام، ويَبْنيها في نفس المسلم الإيمانُ، لتحقق بذلك طمأنينة النفس التي هي أول درجات السلام النفسي الكامل.

شعائر العبادة مصدرا للسلام

لا شك أن الجو النفسي الآمن الذي تشيعه العقيدة في قلب الإنسان يحتاج إلى دوام واستمرار لبقاء تلك المعاني ورسوخها. وهذه وظيفة ضمن وظائفٍ أخرى للعبادة في حياة الإنسان المسلم. وإذا نحن تأملنا الشعائر التعبدية في الإسلام كلها وجدنا أن الخيط الناظم بينها

أنها تُدخل الإنسان مجالا للأمن النفسي من خلال علاقته بخالقه، ليعيش معاني سلام داخلي دائم ومتجدد دوام العبادة في حياته.

فالصلوات مَحطّات يومية في خضمّ الحياة للاتصال بالله، وهو أمر لا يمنح المصلي شعورا بالأمان من مستجدات الأيام لارتباطه بالخالق المدبر فحسب، بل يزوّده بقوة نفسية -لمواجهة أعباء الحياة وتحمّل مشاقها- لا وجود لها إلا في العبادة. وفي الخطاب القرآني توجيه إلى هذا المعنى الذي جعل الفلاح والخير في الحياة الدنيا والآخرة معا مقصدا وغاية للصلاة، كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾{س}(الحج:٨٨)، وقوله سبحانه عن تلبية نداء صلاة الجمعة الأسبوعي ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾(الجمعة:٩)، من ما يجعلها في النهاية عنصرَ توجيه وترشيد للسلوك الإنساني باتجاه الفضيلة ومانعًا من الاعتداء على الحقوق ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾(العنكبوت:٤٥).

ومن أراد أن يفهم البعد النفسي العميق للعبادة في حياة الإنسان، فليقرأ ما كتبه أولئك الذين حرموا هذه النعمة حينا من الدهر قبل إسلامهم، وما كان لها من أثر الغيث والرحمة على نفوسهم الظمآى بعد أن عرفوا الإسلام، وأثرها البالغ في إحساسهم بالسكينة والسلام.

وإذا كانت الصلاة محطة يومية وأسبوعية متواصلة، فقد أقام الإسلام محطة سنوية عامة يدخل فيها الإنسان والمجتمع المسلم دورة تكوين في قيم السلام النفسي والجماعي، هي عبادة الصيام، من خلال تقوية النفس وترويضها على التحكم في النوازع والأهواء ولجم الجوارح كلها، حتى عما يباح لها في غير رمضان من أصناف النعم والمتع، فتَسمُو بذلك نفس الصائم حتى يغدو عامل رحمة وسلام لنفسه وغيره. ثم إن شهر رمضان موسم للسلام الاجتماعي، يعيش فيه الناس معانيَ الصبر لا على شهوتي البطن والفرج وحدهما، بل على أذى الناس وجهلهم، فلا يغضب الصائم ولا يرفث ولا يجهل وإن بادره غيره بالاستثارة أو الأذى، لأنه يعيش موسم ترويض على معاني السلام؛ وفي الحديث القدسي "الصيام جُنّة، فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب، فإن سابَّه أحد أو قاتله فليقل إني امرؤ صائم"(متفق عليه).

ثم يبلغ المسلم قمة العيش في ظلال السلام خلال الامتحان الذي فرض الإسلام اجتيازه مرة واحدة على الأقل في حياة المسلم، تتويجا لمحطات التربية اليومية (الصلاة) ودورات التكوين السنوية (الصيام)، حيث يعيش المؤمن رحلة سلام حقيقية وشاملة في الحج، يتدرب خلالها على كافة المبادئ والقيم التي جاءت بها الرسالة، ومنها مبدأ "السلام"؛ فعندما يحرم الحاج يتحول بمقتضى هذا الإحرام إلى عنصر طمأنينة وسلام في الأرض، للإنسان والحيوان والنبات، فلا يؤذي غيره ولا يسلك ما يؤدي به إلى فحش أو خصومة: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾(البقرة:١٩٧)، ولا يصطاد حيوانا ولا يأكله إذا صيد له: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾(المائدة:٩٦)، ولا يقطع شجرا، ولا يؤذي كائنا. وإنه لمن قبيل الاتساق مع جو هذه الرحلة التعبدية، أن يكون من دعاء الحاج عند رؤية الكعبة المشرفة قوله: "اللهم أنت السلام ومنك السلام، فحيّنا ربنا بالسلام"(رواه مسلم).

وفي الحج مبدأ آخر لا يقل أهمية في إشاعة معاني السلام في النفس والجماعة، وهو مبدأ المساواة بين الناس واتخاذها شعارا معلنا وسمتا ظاهرا، إذ يلبس المحرم لباسا لا يميزه عن غيره ليتوحد الجميع في مظهر واحد. وهذا أحد المؤرخين من المسيحيّين يتحدث عن هذه القيمة في عبادة الحج فيقول: "ولا يزال الحج على كرّ العصور نظاما لا يدارى في تشديد عرى التفاهم الإسلامي والتأليف بين مختلف طبقات المسلمين، وبفضله يتسنّى لكل مسلم أن يكون رحّالة، مرة على الأقل في حياته، وأن يجتمع مع غيره من المؤمنين اجتماعا أخَويا، ويوحد شعوره مع شعور سواه من القادمين من أطراف الأرض. وبفضل هذا النظام يتيسر للزنوج والبربر، والصينيين والفرس والترك والعرب وغيرهم، أغنياء كانوا أم فقراء، عظماء أم صعاليك، أن يتآلفوا لغة وإيمانا وعقيدة".[1]

هذه أمثلة أولية مختصرة لجوانب السلام النفسي والاجتماعي من المشاعر الإيمانية إلى الشعائر العبادية في الإسلام، تمكّن من القول بكلمة: إن الإسلام يجعل من الأمن الروحي والنفسي للإنسان، عبر إشاعة معاني الطمأنينة والسلام بين جوانحه، المدخلَ إلى سلام الجماعة في دوائر الأسرة فالمجتمع والأمة ثم الإنسانية كلها، لأن الإنسان مادة ذلك كله، وركن بنائه الركين. ■

(*) مدير مركز الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية – وجدة / المغرب.

الهوامش

(1) تاريخ العرب لفِيليب حِتّي، ١٨٧/١.



إن البشرية ستتوجه في آخر الزمان بكل طاقتها إلى العلم والفن، فتستمد كل قوتها من العلم، ويمتلك العلم مرة أخرى الحكم والقوة، وتلعب الفصاحة والبلاغة دورا جوهريا في قبول الجمهور للعلم. ويعني هذا عودة عصر العلم والبيان من جديد.

* * *

ISSN 1306-1879
9 771306 187009 06
www.hiramagazine.com